﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾

الإصلاح

لا يُصلحُ آخرَ هَذهِ الأُمَّة إلاّ ما أصْلَحَ أوَّلَـهَا

مجلة جامعة تصدر عن دار الفضيلة للنشر والتوزيع

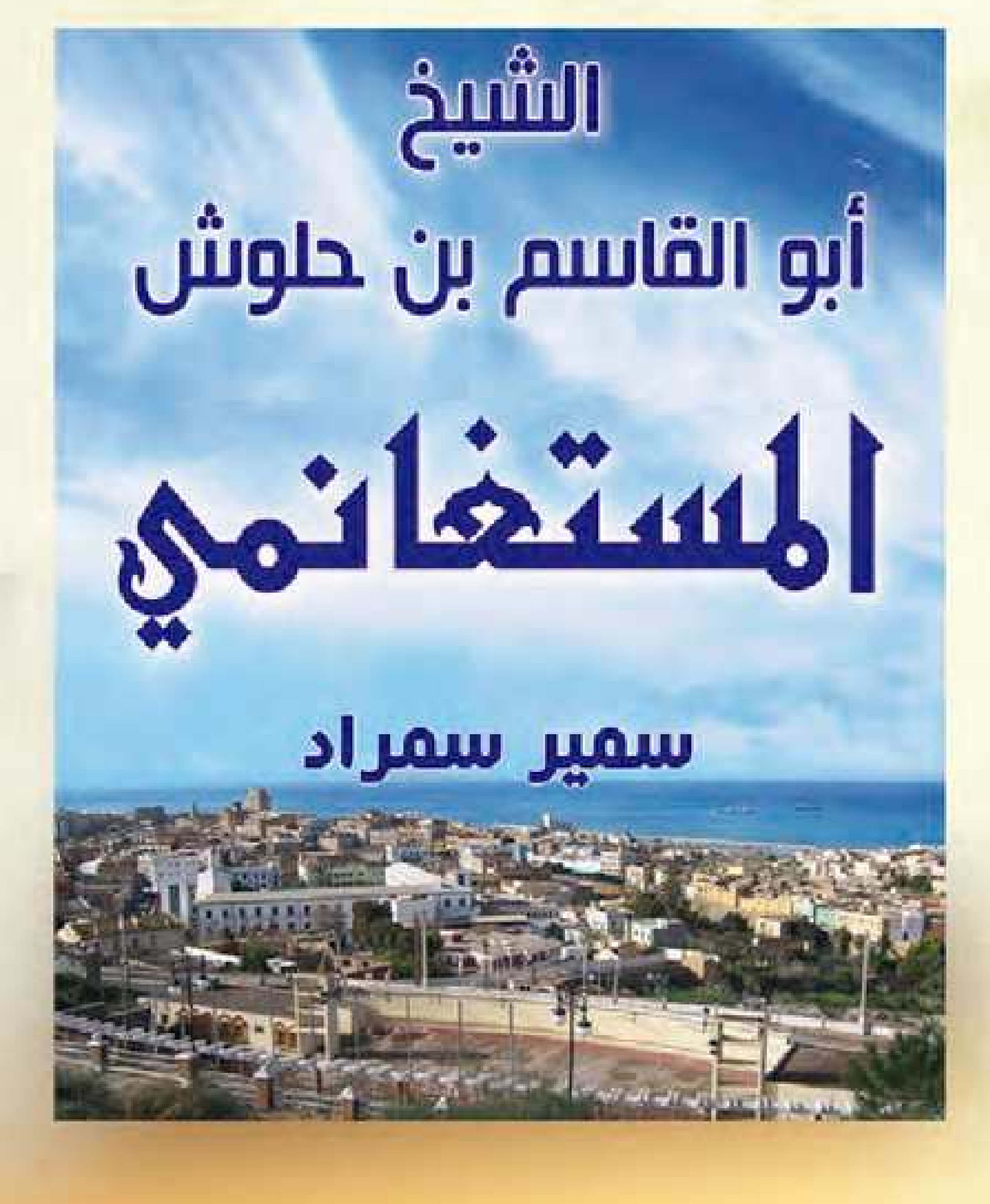
السنة الرابعة . العدد التاسع عشر . ربيع الأول/ربيع الثاني 1431هـ الموافق لـ مارس/أفريل 2010م

دمعة على التوحيد

التحرير

الاعتداء في الدعاء

عز الدين رمضاني



تنوير الحوالك في الكلام على حديث (اللهم اكفني بحلالك عن حرامك)

عمر الحاج مسعود

القول المختصر في بيان موقف المستشرقين من عقيدة القضاء والقدر

أسامة العتيبي

الخشوع

عبد المالك رمضاني

ضوابط نصيحة أئمة المسلمين حكاما وعلماء

أ.د. محمد علي فركوس

السعر: 150 دج رقم الإيداع القانوني: 3623 - 2006 ISSN:1112 - 6825

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إنَّ الحمدَ للهِ، نحمدُه ونَسْتَعِينُه ونَسْتَغْفِرُه، ونعوذُ باللهِ منْ شرورِ أنْفُسِنا ومِنْ سَيِّئاتِ أعْمالِنا، مَنْ يَهْدِهِ الله فلا مُضِلَّ لَهُ، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَادِيَ له.

وأشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾ [سُورَةُ آلِ عِمۡرَانَ].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ [سُورَةُ النِّسَاءِ].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [سُورَةُ الأَحۡزَابِ].

أمَّا بَعْدُ:

فإنَّ خيرَ الحديثِ كتابُ اللهِ، وأحسنَ الهَدْيِ هَدْيُ محمَّدٍ ﷺ، وشَرَّ الأمورِ مُحْدَثَاتُهَا، وكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وكلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ، وكُلَّ ضَلالَةٍ في النَّارِ.



«الإصلاح» بثوب جديد

الحمد لله وحده ولا ربَّ سواه، له الشُّكر والفضل كلُّه، فها هي مجلَّة «الإصلاح» قد مضى من عمرها ثلاث سنين، وهي لا تزال تمشي بخُطى ثابتة، مشية الواثق بالله، مستمدَّة العون منه ـ سبحانه وتعالى ـ، غير آبهة بالمُناوئين والمخذِّلين والمُرجفين، تدعُو إلى كتاب الله وسنَّة رسول الله ﷺ بفهم السَّلف الصَّالح في زمن الغُربة، وقِيام أسباب الصَّدِّ والصُّدود عن هذه الدَّعوة المباركة، وإنَّ الأمل في الله كبير لتحيا هذه المجلَّة أعوامًا عديدة وأزمنةً مديدة؛ لتؤدِّي بعض ما وجب من الدَّعوة إلى الله تعالى على علم وبصيرة، وتبصير النَّاس بدينِهم، وتحذيرهم من شوائب البدع والخرافات والأهواء والضَّلالات، وتثبيت قواعد الإسلام الصَّحيح، ليثمر مجتمعًا مسلمًا متميِّزًا، لا مجتمعًا ذائبًا متميِّعًا.

إنَّ قرَّاءنا الكرام سيجدون أنَّ «الإصلاح» قد خرجت عليهم في هذا العدد بثوب جديد، وازدانت بحلَّة غير معهودة، فلبست الألوان وتغيَّر حجمُها وتبدَّل شكلُها، وعمل فيها التَّصميم عملَه، وترك بصمتَه، وفعلنا ذلك كله حرصا على راحة القارئ عند النَّظر والقراءة؛ كما سيجد القرَّاء الكرام في مقابل ذلك تغيُّرا في السِّعر؛ ألا فليعلَمُوا أنَّ ذلك ليس باختيارنا وإنَّما اضطُررنا إليه اضطرارًا.

ومِنَ الجديد الذي حمله هذا العدد هو الإعلان عن فتح باب الاشتراك السَّنوي تلبية لرغبة الكثيرين؛ وإنَّه في المستقبل القريب ـ إن شاء الله ـ سنضع بين يدي القرَّاء الكرام استبيانًا نستطلع فيه آراءهم وتوجيهاتهم وملاحظاتهم، ليحصل التَّعاون والتَّواصل مع جميع إخواننا من أجل الرُّقيِّ بمجلة «الإصلاح» إلى مراتب الحُسن والنَّجاح في الشَّكل والمضمون.

كما لا نفوِّت الفرصة لتقديم الشُّكر الجزيل إلى كلِّ من شارك بالقليل أو الكثير في سبيل إبقاء هذا المنبر الإعلامي.

نسأل الله السَّداد في الأقوال والأعمال، والتَّوفيق في الحال والمآل.

مدير المجلة



مجلة جامعة

تصدر عن دار الفضيلة للنشر والتوزيع



المدير

توفيق عمروني

رئيس التحرير

عز الدين رمضاني

أعضاء التحرير:

عمر الحاج مسعود

عثمان عيسي

نجيب جلواح

التصميم والإخراج الفني:

دار الفضيلة للنشر والتوزيع

عنوان المجلة:

دار الفضيلة للنشر والتوزيع

حي باحة (03)، رقم (28) الليدو.

المحمدية ـ الجزائر

الهاتف والفاكس:

(021) 51 94 63

التوزيع (جوال): (0661) 62 53 08

البريد الإلكتروني:

darelfadhila@maktoob.com

الموقع على الشبكة العنكبوتية:

www.rayatalislah.com

في هذا العدد

سعر المجلة 150 دج

العدد الحالي

قواعد النشر في المجلة

- أن تكون الموضوعات مطابقة لخطة المجلة، وموافقة لمنهجها.
- أن يكون المقال متسمًا بالأصالة والاعتدال.
- أن يحرَّر المقال بأسلوب يحقق الغرض، ولغة بعيدة عن التكلف والتعقيد.
- الدقة في التوثيق والتخريج مع الاختصار.
- أن تكون الكتابة على الكمبيوتر، أو بخطٍّ واضح مقروء؛ وعلى وجه واحد من الورقة.
- ألا يزيد المقال على خمس صفحات.
- أن يذكر صاحب المقال اسمه الكامل وعنوانه ورقم هاتفه، ودرجته العلمية إن وجدت.
- المقالات أو البحوث التي لا تنشر لا تردُّ لأصحابها.



دمعة على التوحيد

مـن الموازين الَّتي انقلبت والمعايير الَّتي اختلَّت عند أكثر المسـلمين اليوم، أن صـار أحدنـا لا يفـرِّط في حقوقه على غـيره أبدًا، ولا يتنازل عن شـيء منهـا، وإن فَعَلَ فَعَلَى مَضَض، ولو سـلب منه قدر يسير لوجد في نفسـه، وتألم لذلك تألمًا شديدًا، وقد يبذل الجهد المضـني، ويركب المشاق المكلفة لاسـترداد حقِّه واسترجاع ما أخذ منه والمطالبة بـه، وأمَّا إذا تعلَّق الأمر بحقوق الله عزَّ وجلَّ فقد يعتدَّى عليها جهارًا نهارًا فلا يغضـب ولا يتأثر، ولا يحرِّك ذلك شـعرة من بدنه، ويشـاهد ألوانًا وأصنافًا من الشِّرك تضرب بأطنابهـا خلال الدِّيـار ولا يذرف دمعة واحدة على أعظم حقٍّ مـن حقوق ربِّه عزَّ وجلَّ وهو التَّوحيد، ولا يبذل في سـبيل تصـحيح هذا الوضع شيئًا يُذكر؛ وتراه يمتلكه الغضب مرَّة أخرى ويثور ويملأ الدُّنيا ضـجيجًا وصـخبًا عند سـماعه أو قراءته لخبر مفاده أن مسـؤولًا أو مديرًا اختلس مالًا من المال العامِّ أو نهب عقارًا من العقارات أو سـطا على بعض الممتلكات، لكنَّه لا يجد في نفسـه تلك السُّـورة الغضـبيَّة عند مطالعته أو سماعه لخبر يفيد أنَّ في بلدة ما أعيد بعث ضـريح توقد عنده الشُّـموع أو تشـييد قبَّة يتمسَّـح بجدرانها أو ترميم قبرٍ يطاف حوله، يقف أناس على أعتابه بين يديه خاشعين ضارعين يلتمسـون إمـداده ومعونتـه، ويقدِّمون لـه القرابـين والنَّفقات رجـاءَ بركتـه وإجابته.

إنَّ قلـب المسـلم إذا كان مشـبَّعًا بالتَّوحيـد كاد أن يموت كمـدًا إذا رأت عيناه أو سـمعت أذناه مثل هذه المظاهر الشِّـركية الَّتي تخرق الإسـلام خرقًا، وتخدش التَّوحيد خدشًـا؛ ووالله ليس شـيء أضـرَّ على الأمَّة أفرادًا وجماعات، حكَّامًا ومحكومين من أن يفشو فيهم الشِّرك المنافي للتَّوحيد، ثمَّ لا يُكاد ينكر، بل الأغرب والأعجب أن يُقدَّم على أنَّه الإسلام الذي لا بديل عنه!!

والمسلم المتَّبع لهدي نبيِّه ﷺ يكره ويبغض جميع الذُّنوب صغيرها وكبيرها دقَّها وجلَّها، لكن لا يخفى عليه تفاوتها، ففي «الصَّـحيحين» سـأل ابنُ مسـعود رضي الله عنه النَّبيَّ ﷺ أيُّ الذَّنب أعظم؟ قال: «**أَنْ تَجْعَلَ لله ندًّا وَهُوَ خَلَقَكَ**»، قَالَ فَقُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ «**أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ مَخَافَةَ أَنْ يطعم مَعَكَ**»، قَالَ: قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ «**أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ**»، قَـالَ: وَأَنْزَلَ الله تَعَالَى تَصْـدِيقَ قَوْلِ النَّبيِّ ﷺ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾» الآيَةَ.

فهـذا التَّرتيـب يجعـل الشِّـرك بـالله تعـالى هو أعظم الذُّنـوب على الإطلاق الَّذي ينبغي أن لا يسـتهان بأمره أبدًا؛ لأنَّ الشِّـرك يقضـي على كلِّ حسنة، ولا يدع لصـاحبه نصرة ولا عزَّة ولا شـرفًا، وينأى به بعيدًا عن ولاية الله ومغفرته، ويسـحبه إلى الخذلان سحبًا، ويجره إلى النِّـيران جـرًّا، قال تعـالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾ [النساء]، وقـال الله تعـالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة].

فعلـى المسـلم أن تدمـع عينـه وتجزع نفسـه على التَّوحيد، وأن يغار على جناب ربِّه جلَّ وعلا، وأن يضـيق ذرعًـا من وجـود مظاهر الشِّـرك كلِّها، فلا يرضـيه إلَّا أن يـرى ظـلال التَّوحيد الوارفة تظلـل جميع القطر، ولا يقـرُّ له قرار إلَّا إذا رأى قلوب أهل الإسـلام قبل غيرهم متوجِّهة إلى ربِّها بالدُّعاء والاستغاثة والاستعانة والتَّوكُّل والخوف والرَّجاء وجميع أنـواع العبادة، فلا يهدأ له بال ولا يجد راحة إلَّا إذا تحقَّق ذلك، وإلَّا فهو في سـعي دائم وعمل متواصـل لا ينقطع إلَّا بالموت؛ لإصلاح هذا الوضع بالدَّعوة إلى الله عزَّ وجلَّ بكلِّ وسيلة مشروعة، وعلى قدر علمه ومنصـبه وقوَّته وقدرته، فلا يتكلَّف ما ليس له، ولا يتخلَّف عمَّا هو تحت يده وتصرُّفه، فصاحب العلم بعلمه وقلمه، وصاحب المنبر بخطابه وفصاحته، وصاحب المال بماله وثروته، وصاحب المنصب والجاه بجاهه وشفاعته، وهكذا...

فلو تقاسـم الجميـع وتحالفـوا على جعل مسـألة منابذة الشِّـرك من قضايا المصـير الَّتي لا يتنازل عنها قيـد أنملة، وأن لا تغمض الجفـون حتَّى لا يبقى أحد منَّا يسـلب عـن الله تعـالى حقًّا مـن حقوقه أو خاصيَّة من خصائصـه في ربوبيَّته أو ألوهيَّته أو أسـمائه وصـفاته، ويضـيفه إلى أحد من خلقه؛ من وليٍّ صـالح أو شـيطان مـارد أو غيرهمـا، وأن يقال لكل ما سـوى الله: إنَّما أنت عبـد مخلوق لا ربٌّ معبـود، وأنَّه لا إلـه إلا الله، لظهرت ثمـار هذا العمل العظيم بادية للعيان، وصـلح بها الدُّنيا والدِّيـن، مـع نيل رضـا الملـك الدَّيَّـان، فتهـدأ النُّفوس وتطمئنُّ القلوب وتفتح الأرزاق وتساق الخيرات، وسيجد المسلمون سعادة الحياة وهناءتها.

وإنَّ مَـن يشـارك في هذا الإصـلاح سـيكون أنفع النَّـاس لأمَّتـه، وأكثرهم عودًا عليها بالخـير، وأعظمهم منَّة على الخلق؛ لأنَّ من علَّمك التَّوحيد كان فضله عليك أعظم من فضل والديك عليك؛ لأنَّ التَّوحيد هو مفتاحك إلى أكبر مطلوب وأفضـل مرغوب وهو الجنَّة، قال ﷺ: «**مَـنْ مَاتَ لاَ يُشْـرِكُ بالله شَيئًا دَخَلَ الجَنَّـةَ، وَمَنْ مَاتَ يُشْـرِكُ بِـهِ شَيْئًـا دَخَـلَ النَّـارَ**» [رواه مسـلم]، وفي رواية: «**قَـالَ: ذَاكَ جِبْرِيـلُ أَتَـانِي، فَقَـالَ: مَنْ مَاتَ مِـنْ أُمَّتِكَ لاَ يُشْـرِكُ بِـالله شَيْئًا دَخَلَ الجَنَّـةَ، قُلْـتُ: وَإِنْ زَنَى! وَإِنْ سَـرَقَ! قَـالَ: وَإِنْ زَنَى؛ وَإِنْ سَرَقَ**»، وقال الله في الحديث القدسـي: «**مَنْ لَقِيَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطِيئَةً لاَ يُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَقِيتُهُ بِمِثْلِهَا مَغْفِرَةً**» [رواه مسلم].

فإنَّـه لو اجتمعت لنا الدُّنيا بحذافيرها ولم يسـلم لنـا توحيدنا وخالط الشِّـرك قلوبنا، لكنَّا أشـقى النَّاس وأتعسـهم، ولو سـلبت منَّا الدُّنيا برمَّتها وعشنا محقِّقين للتَّوحيد نابذين للشِّرك، لكنَّا أكثر النَّاس سعادة وتوفيقًا؛ وعلى هذا التَّصـوُّر يبنى المجتمع المسلم الَّذي فَقَد مَجْدَه لـمَّا أضـاع عقيـدةَ التَّوحيد، وإنَّنـا والله جازمون من أنَّ أيَّ إصـلاح أو إصـلاحات لا تقوم على هذا التَّصوُّر فهو إضـاعة للوقـت وتبديـد للطَّاقـة وتمديد في زمـن تأخُّر هذه الأمَّة، وتطويل لعمر الأزمة؛ لأنَّه إذا فسـد التَّصـوُّر فسـد التَّصوير، وما بني على فاسد فهو فاسد، ولا ينتهي بصاحبه إلَّا إلى أمر كاسد.

فـلا جرم أن يكون التَّوحيد مفتاح باب الإصـلاح، وهو أوَّل سـبيل الرَّشـاد، وهو خطام وزمام التَّغيير، وهو منار طريق الخـروج من كلِّ أزمة وضـائقة؛ فليكن عليه مـدار حياتنا وتفكيرنا وجميع تصـرُّفاتنا ونرفع شـعار: التَّوحيد أوَّلًا وآخرًا...



الفكر في ختام الأسماء والصفات لآي الذكر

عبد القادر خريف
ليسانس علوم إسلامية. بسكرة

إنَّ القرآن الكريم أجلُّ ما عطِّر بـه الخاطر وأدلُّ ما هُدي به الحائر؛ فهو عمدة الملَّة وينبوع الحكمة ونور البصائر.

وأشرف ما صُرفت إليه همم النُّظَّار وأولي الاعتبار ما كان في بيان حقِّ الله على عبيده، وتفريده بأسمائه وصفاته وتوحيده، ولا غرو؛ فـ«إنَّ شرف العلم بشرف المعلوم، والباري أشرفُ المعلومات؛ فالعلم بأسمائه أشرف العلوم»[1].

ومنزلة الأسماء والصِّفات بين أبواب التَّوحيد والإثبات عظمى، والحديث عنها يسمو بالنَّفس في مدارج الكمال ومعارج القدس؛ ذلك أنَّه في حقِّ الله وله، فهو سبحانه بثَّها في كتابه العزيز حتَّى لا يكاد يخلو من ذلك صفحة من صفحاته للمتأمِّل، ولأمر ما أفاضها في الملك والملكوت؛ ليعرف ويدلَّ بها على الحيِّ الَّذي لا يموت.

(1) «أحكام القرآن» لأبي بكر بن العربي (4/39).

ولأنَّ الإيمان بأسماء الله وصفاته ـ على مراد الله ورسوله ـ معلم بارز في اعتقاد الطَّائفة الناجية أهل السُّنَّة والجماعة؛ فإنَّ علماء أهل السُّنَّة ليعنيهم أن يستقرَّ المعتقد الحقُّ عند الخلق؛ لذلك أصَّلوا وفرَّعوا وأرسوْا مِنَ القواعد في هذا الباب للمتعبِّد والنَّاسك ما يكون به الأثر، فيشعُّ عليه من خيرها ومن جمالها الباهر وحسنها الزَّاهر.

وقد كان من جملة ما أرسوْا: قاعدة اختتام الآيات بالأسماء أو الصِّفات أو بهما، وهذا شائع في خواتيم آي الذِّكر بحيث لعلَّها تربو على بضع المئين.

قال الزَّركشي رَحِمَهُ اللهُ:

«اعلم أنَّ من المواضع الَّتي يتأكَّد فيها إيقاع المناسبة: مقاطع الكلام وأواخره، وإيقاع الشَّيء فيها بما يشاكله، فلا بدَّ أن تكون مناسبةً للمعنى المذكور أوَّلاً، وإلاَّ خرج بعض الكلام عن بعض، وفواصل القرآن العظيم لا تخرج عن ذلك؛ لكن منه ما يظهر ومنه ما يُستخرج بالتَّأمُّل للَّبيب»[2].

وهذه القاعدة ـ لِمَنْ عمل بها ـ منافعها عميمة وفوائدها جسيمة.

قال العلاَّمة السَّعدي رَحِمَهُ اللهُ:

«يختم الله الآيات بأسماء الله الحسنى؛ ليدلَّ على أنَّ الحُكْمَ المذكور له تعلُّق بذلك الاسم الكريم، وهذه القاعدة لطيفة نافعة، عليك بتتبُّعها في جميع الآيات المختومة بها، تجدها في غاية المناسبة، وتدلُّك على أنَّ الشَّرع والأمر والخلق كلَّه صادرٌ عن أسمائه وصفاته، ومرتبط بها، وهذا باب عظيم في معرفة الله ومعرفة أحكامه، وهو من أجلِّ المعارف وأشرف العلوم، فتجد آية الرَّحمة مختومة بصفات الرَّحمة، وآيات العقوبة والعذاب مختومة بأسماء العِزَّة والقدرة والحكمة والعلم والقهر»[3].

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ:

«وإذا تأمَّلت ختم الآيات بالأسماء والصِّفات؛ وجدت كلامه مُخْتَتَمًا بذكر الصِّفة الَّتي يقتضيها ذلك المقام حتَّى كأنَّها ذكرت دليلاً عليه

(2) «البرهان في علوم القرآن» (1/78).
(3) «القواعد الحسان للسعدي» (ص50).

وموجبة له»[4].

وقال ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وهذه مسألة ينبغي لطالب العلم أن ينتبه لها في الآيات، إنَّ ختم الآية بعد ذكر الحكم دليلٌ على ما تقتضيه هذه الأسماء الَّتي ختمت بها الآية»[5].

وقال حامد بن عبد الله العلي:

«ختم الآيات بأسماء الله الحسنى، يدلُّ على أنَّ معاني الآية لها علاقة بالاسم»[6].

فيعني بهذا أنَّ خواتيم الآيات الَّتي فيها ذكر أسماء وصفات الله جلَّ وعلا: «كأنَّها أختام وتوقيعات ربَّانيَّة على المعاني الَّتي في الآيات لتوثِّقها، وتعلِّلها وتؤيِّدها، وتمنحها بعد التَّوضيح تأكيدًا، وبعد التَّعليل حسنًا أكيدًا».

وتعقيبها بآية الجهاد»[7].

■ تختم الآية بصفاتٍ مناسبة للمعنى:

نقل السُّيوطي عن أعرابي أنَّه سمع قارئًا يقرأ: «فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البيِّنات؛ فاعلموا أنَّ الله غفور رحيم»، ولم يكن يقرأ القرآن، فقال: إنْ كان هذا كلام الله فلا يقول كذا، الحكيم لا يَذكر الغفران عند الزَّلل؛ لأنَّه إغراء عليه[8]، ومن الشَّائع المشتهر قصَّة الأعرابي الَّذي لمَّا سمع رجلاً يقرأ قول الله عَزَّ وَجَلَّ: «والسَّارق والسَّارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبَا نكالاً من الله، والله غفور رحيم»!! فقال هذا الأعرابي: لست قارئًا للقرآن؛ ولكن عزَّ فَحَكَمَ فَقَطَعَ، ولَوْ غَفَرَ وَرَحِمَ لَمَا قَطَعَ[9]، ولهذا تجد ختم الآية مناسبًا لمعناها.

وإذا تأمَّلت ختم الآيات بالأسماء والصِّفات؛ وجدت كلامه مُخْتَتَمًا بذكر الصِّفة الَّتي يقتضيها ذلك المقام حتَّى كأنَّها ذكرت دليلاً عليه وموجبة له

■ ■ ■

ويحسن هنا الإلماح إلى بعض ما قد يكون فيه بلاغ وباعث لتفحُّصها، وإلاَّ فحصرها متعذِّر؛ ذلك أنَّ الشَّرائع شتَّى، وخواتيم الآي على الوجه الَّذي وصف أسلفنا أنَّه كثيرٌ جدًّا، فمن ذلك:

■ تختم الآية بالصِّفات للمناسبة بين السُّور:

كما في آخر النَّحل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ۝١٢٨﴾، وأوَّل سورة بني إسرائيل: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١﴾، فالمناسبة بين الآيتين ظاهرة؛ ذلك أنَّ معيَّة الله لعبده المؤمن الَّذي اتَّقى وأحسن معيَّة بالسَّمع والبصر، فالله تعالى يُطَمْئِنُ المتَّقين المحسنين أنَّه معهم سميعٌ لأقوالهم وبصيرٌ بما يعملون من الصَّالحات.

■ تختم الآية بالصِّفات لمناسبتها لصدرها:

كقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٧١﴾ [سورة التوبة].

قال البقاعي:

«ختم الآية بوصف العزَّة والحكمة المناسب لافتتاحها بالموالاة

■ تختم الآيات بالصِّفات لإزالة العجب:

كقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٤١﴾ [سورة الأنفال]، يوم الفرقان هو يوم بدر الَّذي فرَّق الله فيه بين الحقِّ والباطل، وأظهر أهل الإسلام - على قلَّة عددهم وعدَّتهم - على عدوِّهم الَّذي كان على استيقان أنَّهم في قبضته.

قال برهان الدِّين البقاعي رَحِمَهُ اللَّهُ:

«ولمَّا كان انعكاس الأمر في النَّصر محلَّ عَجَب؛ ختم الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي: من نصر القليل على الكثير وعكسه، وغير ذلك من جميع الأمور ﴿قَدِيرٌ﴾، فكان ختمها بذلك كاشفًا للسِّرِّ ومزيلاً للعجب ومبيِّنًا أنَّ ما فعل هو الجاري على سنن سنَّته المطَّرد في قديم عادته عند من يعلم أيَّامه الماضية في جميع الأعصر الخالية»[10].

■ تُختم الآية بالصِّفات دفعًا لتَوهُّم أمرٍ مقطوع بخلافه:

كقوله تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١١٨﴾ [سورة المائدة]، قد يتبادر للذِّهن عند قراءة الآية أنَّها ستختم باسْمَي الغفور الرَّحيم؛ لكنَّها خُتمت باسمي العزيز والحكيم.

(4) «شفاء العليل» (ص200).
(5) «تفسير ابن عثيمين» (13/7).
(6) «الخلاصة الجامعة لقواعد التفسير النافعة» (ص36).
(7) «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (359/3).
(8) «الإتقان» (271/2).
(9) «المحرر الوجيز» (273/4)، «زاد المسير» (208/2).
(10) «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (220/3).

قيل: لأنَّ المقام مقام تقديس وإجلال وليس مقام طلب أو دعاء.

وقيل: لبيان أنَّ مغفرته - سبحانه - تكون عن قوَّة وعزَّة، لا عن ضعف وعجز، وأنَّها لا تكون إلاَّ لحكمة عظيمة وليست عبثًا، أو «تنبيهًا على أنَّه لا امتناع لأحد عن عزَّته، فلا اعتراض في حكمه وحكمته»[11].

هذان الاسمان الجليلان منصوبين يغلب أن تختتم بهما آيات العذاب؛ كقوله تعالى في الكفَّار: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾ [النساء]، وقال تعالى في اليهود: ﴿ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ ﴾ [النساء]، «عزيزا» أي: «منيعًا بالنِّقمة من اليهود، «حكيمًا» باللَّعنة والغضب عليهم، فسلَّط عليهم ضيطوس بن اسبسيانوس الرُّومي؛ فقتل منهم مقتلة عظيمة»[12].

والختم بهما منفردين أو مجتمعين مستفيض في الكتاب العزيز، وأجلُّ من نوَّه بفضل اقترانهما، ومعنى تعلقهما، وختم الآي بهما العلاَّمة ابن القيِّم في مبسوطاته العقديَّة، فليُراجعْ هنالك، فقد وضعها على طَرَف التَّمام.

تفريعات:

أوَّلاً - هذه الأسماء المختتم بها غير مترادفة من حيث معانيها إلا من جهة دلالتها على الذات العلية:

والذي قرره أبو العباس بن تيمية شيخ الإسلام أنَّ كلا منها يدل «على معنًى في المسمى غير معنى الآخر مع اتِّحاد المسمى بمنزلة الأسماء المتكافئة التي بين المترادفة والمتباينة»[13].

ثانيًا - من هذه الأسماء المختتَم بها ما عدَّهما جمعٌ من المحقِّقين الاسم الأعظم لربِّنا الأكرم، وهما الحي القيوم:

وإن كان هذا المقام - أي كونها الاسم الأعظم - تُنوزع فيه، إلا أنَّ مدارَ الأسماء الحسنى والصفات العلى كلِّها عليهما قولا واحدا لعلماء الشريعة؛ لأنهما يدلاَّن على سائر الأسامي بالمطابقة والتَّضمُّن واللُّزوم.

(11) «محاسن التأويل» (3/68).
(12) «تفسير البغوي» (2/307).
(13) «مقدمة التفسير».

ثالثا - هذه الأسماء المختتم بها كثيرا ما ترد مكتفى بها عن التصريح بذكر أحكامها وجزائها:

لأن العبد إذا فقه معانيها - على نحو ما بث من كلام الأئمة هنا - أوجب له ذلك الإقدام أو الإحجام، والمثال هنا قول الله تعالى: ﴿ فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ ﴾ [البقرة]، فأنت لا ترى ذكر العقاب، وإنَّما أوكل ذلك إلى فقه العبد بأسماء وصفات مولاه جلَّ في علاه.

رابعا - قد تختم الآيات بنعوت جارية على اسم الله تبارك وتعالى أو غير جارية:

مثال الأوَّل قول الله تعالى: ﴿ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ ﴾ [البقرة]، وقوله: ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [الأنفال]، ومثال الثَّاني قوله تعالى: ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ ﴾ [يس]. الذي ذكر هنا أسماء، ولا يخفاك أيها المبارك أن كل اسم أحسن حامل لصفة عاية أو هي مشتقة منه مستمنة فيه كما هو مقرر في قواعد الباب.

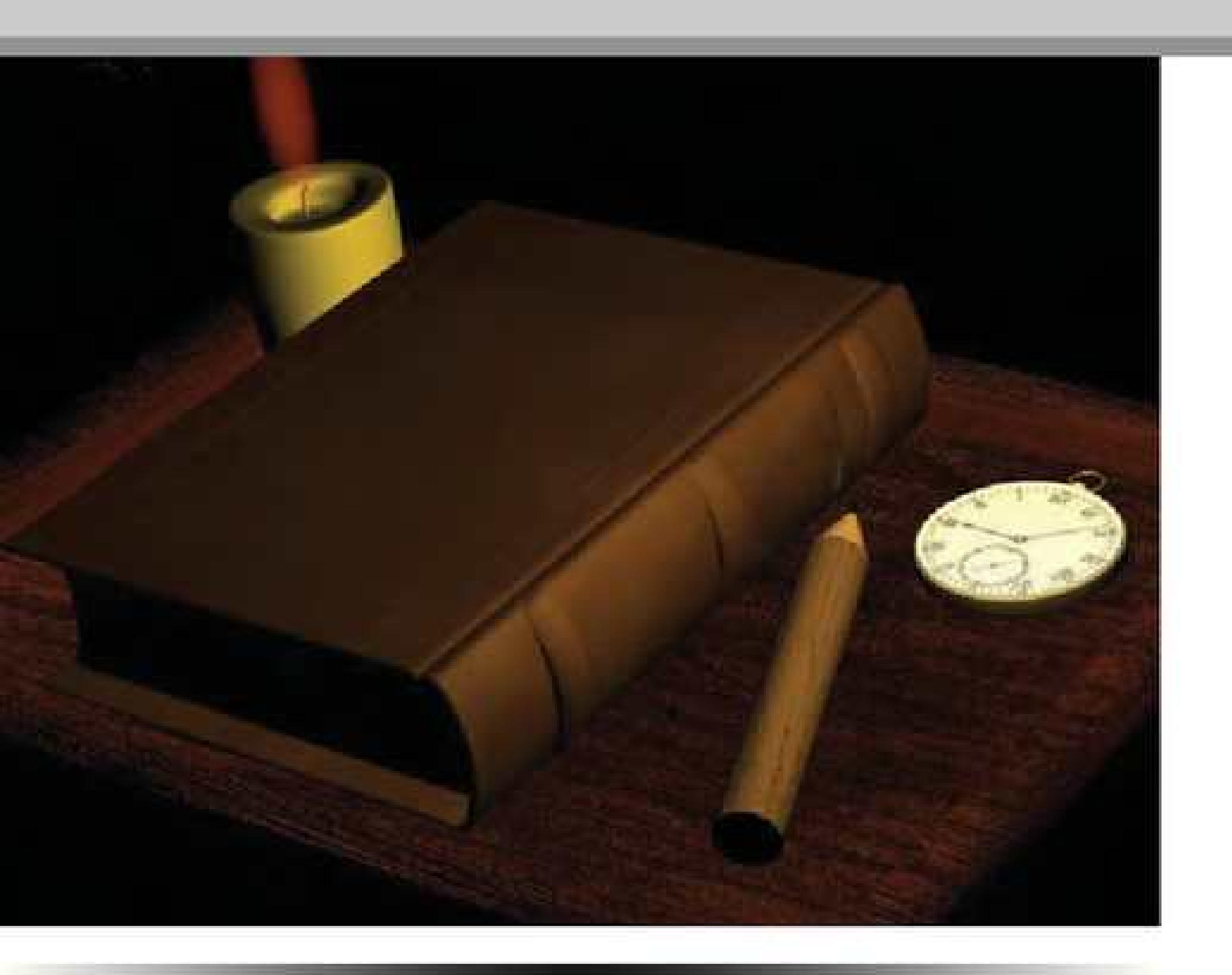
خامسًا - من وجوه إعجاز القرآن فواصله وخواتيم آيه:

قال الشَّيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

«من بلاغة القرآن ختم الأحكام بما يناسبها من أسماء الله»[14]، ونعلم أنَّ القرآن معجز ببلاغته من غير ما ريب.

وبعد؛ فهذا الَّذي ذكرنا من متين العلم وحكمة القرآن البالغة، وليس من ملح التَّفسير ولطائفه، فإن امرؤ نصح لنفسه واتَّخذ القرآن أنيسه وسميره على مرِّ اللَّيالي والأيَّام، فما ثمَّ حينئذ إلاَّ مقامات النُّبوغ في أنواع كلِّ العلوم، والمتوح في الفهوم، فقد رسخ في جبلات أماثل العرب وأقحاحهم مدى منتهى صياغته وبلاغته، فنزل به الرُّوح الأمين على قلب سيِّد المرسلين رحمةً للعالمين، وصلَّى الله وسلَّم على آله وصحبه الغرِّ الميامين.

(14) «لقاء الباب المفتوح» (4/111).



تنوير الحوالك في الكلام على حديث: «اللهم اكفني بحلالك عن حرامك»

عمر الحاج مسعود

أَتَى عَلِيًّا رضي الله عنه رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! إِنِّي عَجَزْتُ عَنْ مُكَاتَبَتِي فَأَعِنِّي، فَقَالَ عَلِيٌّ رضي الله عنه: أَلا أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ عَلَّمَنِيهِنَّ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم، لَوْ كَانَ عَلَيْكَ مِثْلُ جَبَلِ صِيرٍ دَنَانِيرَ لأَدَّاهُ اللهُ عَنْكَ، قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: قُلْ: اللَّهُمَّ اكْفِنِي بِحَلالِكَ عَنْ حَرَامِكَ، وَأَغْنِنِي بِفَضْلِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ.

تخريج الحديث

رواه عبد الله بن أحمد في زيادات «المسند» (1/153)، والتِّرمذي (3563)، وقال: «هذا حديث حسن غريب»، والحاكم (1/538)، وقال: «صحيح الإسناد ولم يُخَرِّجاه»، ووافقه الذَّهبي، وعنه البيهقي في «الدَّعوات الكبير» (303)، والضِّياء المقدسي في «المختارة» (490)، والطَّبراني في «الدُّعاء» (1042)، والبزَّار (563)، وقال: «وهذا الحديث لا نعلمه يُروى عن عليٍّ رضي الله عنه، إلاَّ منْ هذا الوجه بهذا الإسناد».

كلُّهم من حديث أبي معاوية عن عبد الرَّحمن بن إسحاق القُرَشي عن سيَّار أبي الحكم عن أبي وائل به.

والحديث حسنٌ؛ للكلام في عبد الرَّحمن بن إسحاق القرشي العامري، وهو حسنُ الحديث، قال الحافظ ابن حجر: «صدوق»[1].

وهو غير عبد الرَّحمن بن إسحاق، أبي شيبة الواسطي، فهذا ضعيف بالاتِّفاق[2].

قال محقِّق كتاب «الدُّعاء» للطَّبراني (2/1209) عن الأوَّل: «لا يروي عن سيَّار أبي الحكم»، وهذا غلطٌ؛ لأنَّه لو رجع إلى كتاب «الجرح والتَّعديل» لابن أبي حاتم؛ لوجد عكس ما ذَكر.

قال ابن أبي حاتم: «عبد الرَّحمن بن إسحاق القُرشي المديني... رَوَى عن سيَّار أبي الحكم وعبد الرَّحمن بن معاوية...»[3]، فما جاء عند أحمد وغيره من أنَّه القُرشي صحيحٌ، وذكر الحافظ أنَّه نزل البصرة[4]، وسيَّار واسطيٌّ، ويقال: بصريٌّ[5]، فلا يستبعد أنَّه سمع منه.

(1) «التَّقريب» (1/472).
(2) «تهذيب التهذيب» (2/486)، وانظر «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (1/474).
(3) «الجرح والتعديل» (5/212).

شرح غريب الحديث

«**مكاتبتي**»: المكاتبة والكتابة؛ أن يكاتب السَّيِّد عبدَه على مالٍ يؤدِّيه منجَّمًا (مفرَّقًا)، فإذا أدَّاه صار حرًّا[6]، والمكاتَب اسم مفعول؛ لأنَّ المكاتبة تقع عليه.

«**ألا**»: حرف استفتاح يأتي على خمسة أوجه[7]، ويراد به هنا العرض والتَّحضيض وتنبيه المخاطب على الكلام الآتي ذكره.

«**صِير**»: ذكره أكثرهم بلفظ «صير»، وعند الحاكم والبيهقي «صَبِير» بإثبات الباء الموحَّدة[8].

«**صِير**»: بكسر الصَّاد؛ جبل ببلاد طيء، و«صبير» جبل باليمن[9]، وذكره خرج مخرج المبالغة، يعني مهما كان ذلك الدَّين، حتَّى ولو فرض أنَّه مثل الجبل.

«**أدَّاه الله عنك**»: قضاه عنك وأعانك على تسديده.

«**اللَّهمَّ**»: منادى حُذفت منه ياء النِّداء وعوِّض عنها الميم، وجُعلت الميم بعد لفظ الجلالة تيمُّنًا وتبرُّكًا بالابتداء بلفظ الجلالة واختير لفظ الميم دون غيره من الحروف للدَّلالة على الجمع؛ كأنَّ الدَّاعي يجمع

(4) «تهذيب التهذيب» (2/487).
(5) «تهذيب التهذيب» (2/142).
(6) «النهاية في غريب الحديث» (4/253).
(7) «القاموس المحيط» (1349).
(8) وفي نسخة للتِّرمذي: «ثَبِير»، وأظنُّه تصحيفًا؛ لأنَّه لا أصل له في شيء من المصادر السَّالفة الذِّكر.
(9) «النهاية في غريب الحديث» (3/9)، «فيض القدير» (3/143).

قلبه على ربِّه ﷻ، وعلى ما يريد أن يدعو به[10].

«اكفني»: ارزقني الكفاية من الحلال والاستغناء عن الحرام.

«أغنني»: اجعلني غنيًّا بفضلك ورزقك.

المعنى الإجمالي للحديث

جاء الرَّجل يطلب الإعانة الماليَّة لوفاء دينه وإنهاء مكاتبته والتَّخلُّص من رقِّه، فعلَّمه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه هذا الدُّعاء العظيم لاحتمال أنَّه لم يكن عنده مال، فردَّه ردًّا حسنًا؛ عَملاً بقوله تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾ [البقرة: 263]، أو أنَّه أرشده إليه إشارةً إلى أنَّ الأولى والأصلح له أن يستعين بالله على أدائها، ولا يتَّكل على غيره، وهذا أحسن، وينصره قوله: «وَأَغْنِنِي بِفَضْلِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ»[11]، أضف إلى ذلك أنَّ المسؤول هو أمير المؤمنين، فيمكن أن يعينه من بيت المال؛ لكنَّه رضي الله عنه أرشده إلى الأفضل والأولى، كما أنَّه أراد أن يعلِّمه هذا الدُّعاء حرصًا منه على تبليغ حديث رسول الله ﷺ، ونفعه به.

فوائد الحديث

يُؤخذ من هذا الحديث فوائدُ عظيمة، وأصولٌ جليلة:

الفائدة الأولى:

التَّوكُّل على الله حقًّا، والاستعانة به صدقًا على قضاء الدَّيْن والوفاء به، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق]، قال قتادة رحمه الله: «من حيث لا يرجو ولا يُؤَمِّل»[12].

وقال رسول الله ﷺ: «**لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ؛ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ، أَلا تَرَوْنَ أَنَّهَا تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا**»[13].

فالتَّوكُّل على الله ﷻ من أعظم الأسباب الَّتي يُستجلب بها الرِّزق ويُتوسَّل بها لقضاء الدَّيْن، قال بعض السَّلف: «بحسبك من التَّوسُّل إليه أنْ يعلمَ مِنْ قلبك حُسْنَ توكُّلك عليه، فكم مِنْ عبدٍ من عباده قد فَوَّض إليه أمرَه فكفاه منه ما أهمَّه، ثم قرأ: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق]»[14]، ثمَّ لابدَّ مع التَّوكُّل من السَّعي الصادق، والعمل بالأسباب المشروعة، واتِّخاذ التَّدابير اللاَّزمة، وطرح الكسل والبطالة.

ومن أخلص في نيَّته وتوكُّله، وصدق في سعيه وهمَّته أدَّى عنه ربُّه وقُضي دَيْنُه، قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يُرِيدُ أَدَاءَهَا أَدَّاهَا اللهُ عَنْهُ، وَمَنْ أَخَذَهَا يُرِيدُ إِتْلافَهَا أَتْلَفَهُ اللهُ**» ﷻ[15].

الفائدة الثانية:

التَّوجُّه إلى الله تعالى وإنزال الحوائج به، ففضله عظيم، ورزقه كريم، قال الله تعالى: ﴿وَسْـَٔلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ﴾ [النساء]، وقال: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ۝٨﴾ [الشرح]، أي ارغب إليه وحده ولا ترغب إلى غيره، وجاء في وصيَّته ﷺ إلى عبد الله بن عبَّاس رضي الله عنهما: «**إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ**»، أي اسأله ولا تسأل أحدًا سواه؛ «لأنَّ السُّؤال فيه إظهار الذُّلِّ من السَّائل والمسكنة والحاجة والافتقار، وفيه الاعتراف بقدرة المسؤول على رفع هذا الضُّرِّ ونيل المطلوب وجلب المنافع ودرء المضارِّ، ولا يصلح الذُّلُّ والافتقار إلاَّ لله وحده؛ لأنَّه حقيقة العبادة»[16].

إنَّ الله تعالى يحبُّ من عباده أن يسألوه ويطمعوا فيما عنده وينزلوا حوائجهم به، فإذا فعلوا ذلك؛ رَزَقَهم من خزائنه، وأغناهم من فضله، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَنْ نَزَلَتْ بِهِ فَاقَةٌ فَأَنْزَلَهَا بِالنَّاسِ لَمْ تُسَدَّ فَاقَتُهُ، وَمَنْ نَزَلَتْ بِهِ فَاقَةٌ فَأَنْزَلَهَا بِاللهِ فَيُوشِكُ اللهُ لَهُ بِرِزْقٍ عَاجِلٍ أَوْ آجِلٍ**»[17].

فعلى المدين أن يوطِّن نفسه على سؤال ربِّه والرَّغبة في فضله، ويَدَعَ سؤال العبد الضَّعيف الَّذي إذا أَعطى منَّ، وإذا أحسن استعبد، إلاَّ من رحم الله تعالى.

قال عطاء: جاءني طاووس رحمه الله فقال لي: «يا عطاء! إيَّاك أن ترفع حوائجك إلى مَنْ أغلق دونك بابه، وجعل دونك حجابًا، وعليك بطلب حوائجك إلى مَنْ بابُه مفتوح لك إلى يوم القيامة طلب منك أن تدعوَه، ووعدك الإجابة»[18].

ومن أصبح وأمسى لا يرجو إلاَّ ربَّه ولا يرغب إلاَّ فيما عنده كان غنيًّا قنوعًا، وعاش سعيدًا عزيزًا.

كان من دعاء الإمام المبجَّل أحمد ابن حنبل رحمه الله: «اللَّهمَّ كما صُنْتَ وجهي عن السُّجود لغيرك، فصنْ وجهي عن المسألة لغيرك»[19].

الفائدة الثالثة:

فضيلة هذا الدُّعاء وأهميَّته في قضاء الدَّيْن، فالدَّاعي يدعو ربَّه الرَّزَّاق ذا

(10) «الشرح الممتع» لابن عثيمين (2/87).
(11) انظر «تحفة الأحوذي» للمباركفوري (10/9).
(12) «تفسير الطبري» (23/46).
(13) رواه أحمد (1/30) والتِّرمذي (2344)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (5254).
(14) «جامع العلوم والحكم» (2/407).
(15) رواه أحمد (2/361)، والبخاري (2387).
(16) قاله ابن رجب في «جامع العلوم» (1/395).
(17) رواه الترمذي (2326)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب»، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (6566).
(18) «حلية الأولياء» (4/11).
(19) «حلية الأولياء» (9/233).

القوَّة المتين أن يرزقه الكفاية من الحلال، والاستغناء بفضله عمَّن سواه.

فمن حرص على هذا الدُّعاء وواظب عليه محققًا شروط الإجابة مجتنبًا موانعها؛ كفاه الله وأغناه وأدَّى عنه وأعانه، مهما عَظُمَ ذلك الدَّين، فخزائنه عزَّ وجلَّ لا تنفد، ورزقه لا ينقص، قال النَّبيُّ ﷺ: «**إنَّ يَمينَ الله مَلأى لا يَغيضُهَا نَفقةٌ سَحَّاءُ اللَّيلَ وَالنَّهارَ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فَإِنَّهُ لَمْ يَنْقُصْ مَا فِي يَمِينِه**»[20]، ومن رزقه الله من فضله لم يحتجْ إلى غيره.

. الفائدة الرابعة:

فضيلة الحلال الطَّيِّب ورذالة الحرام الخبيث، إذ أنَّ البركة والخير في الأوَّل ولو كان قليلاً، والمحقُ والشَّرُّ في الثَّاني ولو كان كثيرًا، قال الله تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [سورة المائدة].

«والصَّحيح أنَّ اللَّفظ عامٌّ في جميع الأمور، يتصوَّر في المكاسب، والأعمال، والنَّاس، والمعارف من العلوم وغيرها؛ فالخبيث من هذا كلِّه لا يفلح ولا ينجب، ولا تحسن له عاقبة وإن كثر، والطَّيِّب وإن قلَّ نافعٌ جميلُ العاقبة»[21].

وقال تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [البقرة: 267].

المحقُ هو الذَّهاب والنَّقص ورفع البركة، ويُربي هنا الزِّيادة والنَّماء والبركة، فالله عزَّ وجلَّ: «يمحق مكاسب المرابين، ويُربي صدقات المنفقين، عكس ما يتبادر لأذهان كثير من الخلق؛ أنَّ الإنفاق ينقص المال وأنَّ الرِّبا يزيده، فإنَّ مادَّة الرِّزق وحصول ثمراته من الله تعالى، وما عند الله لا ينال إلاَّ بطاعته وامتثال أمره، فالمتجرِّئ على الرِّبا، يعاقبه بنقيض مقصوده، وهذا مشاهد بالتَّجربة: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾» [سورة النساء][22]، فعلى العبد أن يسعى لكسب الحلال الطَّيِّب، ويرضى بما قسم الله له منه، ولا يغترَّ بكثرة الخبيث، فإنَّ عاقبته إلى قُلٍّ.

. الفائدة الخامسة:

ينبغي للعالم والمفتي والنَّاصح إرشادُ النَّاس إلى اللُّجوء إلى الله والفرار إليه والاعتصام به وتوحيده ودعائه، والرَّغبة فيما عنده، وقطع تعلُّقهم بالعباد وسؤالهم واستشرافهم لأموالهم، وهذا الَّذي فعله أميرُ المؤمنين عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه حيث أرشد السَّائل إلى أفضل ممَّا طلب، ودلَّه على خير ممَّا سأل، أرشده إلى التَّوجُّه إلى الله عزَّ وجلَّ وسؤاله الكفاية والغنى من فضله.

ومثل هذا؛ حديث عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه أَنَّهُ شَكَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَجَعًا يَجِدُهُ فِي جَسَدِهِ مُنْذُ أَسْلَمَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**ضَعْ يَدَكَ عَلَى الَّذِي تَأَلَّمَ مِنْ جَسَدِكَ، وَقُلْ بِاسْمِ اللهِ ثَلاثًا، وَقُلْ سَبْعَ مَرَّاتٍ: أَعُوذُ بِاللهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ**»[23].

علَّمه هذا الدُّعاء وأرشده إلى التَّوجُّه إلى ربِّ الأرض والسَّماء الَّذي يكشف الضُّرَّ، ويشفي، وهو الشَّافي لا شفاء إلاَّ شفاؤه، شفاءً لا يغادر سَقَمًا، فقال ذلك؛ فشفاه الله وعافاه، جاء في رواية «الموطَّأ» لهذا الحديث (1686): «فَقُلْتُ ذَلِكَ؛ فَأَذْهَبَ اللهُ مَا كَانَ بي، فَلَمْ أَزَلْ آمُرُ بِهَا أَهْلِي وَغَيْرَهُمْ».

وقد عَمِي عن هذا أولئك الرُّقاة المرتزقة - فضلاً عن غيرهم من المشعوذين - الَّذين لا همَّ لهم إلاَّ الاستحواذ على النَّاس واستغلال جهلهم وابتزاز أموالهم، فيفرحون بمجيئهم إليهم واكتظاظ محلاَّتهم بهم، والله المستعان على ما يفعلون.

. الفائدة السَّادسة:

ينبغي للمفتي والمعلِّم تذكير المتعلِّم أنَّه يريد نفعه وتعليمه وإيصال الخير إليه ويعرض عليه ذلك ابتداءً ليكون أوقع في نفسه فيشتدَّ تشوُّقه إليه وتُقبل نفسه عليه، فهو مقدِّمة استرعى بها نفسه لتفهيم ما يسمع ويقع منه بموقع»[24]، فالمكاتب لما طلب الإعانة قال له علي رضي الله عنه: «ألا أعلِّمك كلمات»، فتأمَّل كيف عرض عليه أن يعلِّمه تلك الكلمات المباركات لعلَّ الله ينفعه بها، وهذه طريقة نافعة جدًّا في التَّعليم والدَّعوة إلى الله تعالى.

وقريب من هذا قول الله عزَّ وجلَّ لنبيِّه موسى عليه السلام: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [سورة النازعات]، أتى بـ «هل» الدَّالَّة على العرض والمشاورة الَّتي لا يشمئزُّ منها أحد»[25].

وفي السُّنَّة الشَّريفة شيءٌ كثير من هذا، فقد كان رسول الله ﷺ يستفتح كلامه بقوله: «**ألا أُخبِرُكُمْ**»، «**ألا أَدُلُّكُمْ**»، «**ألا أُنَبِّئُكُمْ**»[26]، لإثارة انتباههم، وتشويقهم لكلامه، حتَّى تُقْبِلَ عليه نفوسهم وتعيه قلوبهم.

والله الموفق، لا إله إلا هو، ولا ربَّ سواه، والحمد لله رب العالمين.

■ ■ ■

(20) رواه البخاري (7419) ومسلم (993).
(21) قاله القرطبي في «تفسيره» (6/327).
(22) قاله السَّعدي، ملحق تفسيره (959).
(23) أخرجه مسلم (2202).
(24) قاله المناوي في «فيض القدير» (3/143.144).
(25) «تفسير السعدي» (506)
(26) افتح «صحيح الجامع الصغير» للعلامة الألباني رحمه الله على هذه الحروف تجد كنزًا عظيما.

انحراف المتكلمين في مفهوم التوحيد وآثاره على الفرد والمجتمع

بوفلجة بن عباس

■ طالب بمرحلة الماجستير بقسم العقيدة بالمدينة النبوية

التَّوحيد إذا أُطلق في الشَّرع؛ فإنَّه بمعنى إفراد الله ﷻ بالعبادة، وهو فعل العبد، وهو المعبَّر عنه عند أهل العلم بتوحيد الألوهيَّة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 25]، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: 36]، وغيرها من الآيات الكثيرة الَّتي وردت بهذا المعنى.

ومن السُّنَّة حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه حين بعثه النَّبيُّ ﷺ إلى اليمن لأهل الكتاب وفيه «**فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْه عِبَادَةُ الله**»[1]، وورد بلفظ آخر وهو: «**فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا الله تَعَالَى**»[2]، وفي لفظ آخر: «**فَإِذَا جِئْتَهُمْ فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَلاَّ إِلَهَ إِلاَّ الله وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله**»[3].

فهذه ألفاظ الحديث كلُّها يفسِّر بعضها بعضًا، فتوحيد الله ﷻ هو عبادة الله، وهو معنى الشَّهادتين.

وفي رواية لحديث ابن عمر رضي الله عنهما في مباني الإسلام: «**بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ: عَلَى أَنْ يُوَحَّدَ الله...**»[4]، فجعل الشَّهادة هي التَّوحيد.

وعرف الصَّحابة هذا المفهوم واستعملوه في كلامهم، فهذا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما يقول في حديثه الطَّويل في صفة حجَّة النَّبيِّ ﷺ: «**فَأَهَلَّ بِالتَّوْحِيد: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لاَ شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالمُلْكَ لاَ شَرِيكَ لَكَ**»[5]، فجعل الإهلال بالحجِّ لله وحده لا شريك له توحيدًا، والحجُّ ركنٌ من أركان العبادة.

(1) أخرجه البخاري (1458)، ومسلم (19).
(2) أخرجه البخاري (7372).
(3) أخرجه البخاري (1496)، ومسلم (19).
(4) أخرجه مسلم (16).
(5) أخرجه مسلم (148).



وهـذا المفهـوم الشَّـرعيُّ للتَّوحيـد هـو الَّذي فهمته الأمَّة واتَّفقت على إطلاق اسم التَّوحيد عليه.

قـال الإمـام الدَّارمـي رَحِمَهُ اللَّهُ: «تفسـير التَّوحيد عند الأُمَّة، وصـوابه قول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له»[6].

وقد قـرَّر هذا المعنى الشَّـرعي للتَّوحيد شـيخُ الإسـلام ابـن تيمية في مواضـع من كتبه، منها قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «والتَّوحيد الَّذي بعث الله بـه رسـوله، وأنزل به كتابـه هو: عبادة الله وحده لا شـريك له، وهو توحيد ألوهيَّته المتضمِّن توحيد ربوبيَّته»[7].

انحرافات المتكلِّمين في مفهوم التَّوحيد

أوَّلاً ـ انحرافهـم في حقيقـة التَّوحيـد ومسمَّاه الشَّرعي:

قد انحرف عن مسمَّى التَّوحيد الشَّرعي طوائف مـن المتكلِّمـين، حيث إنَّهم قسَّـموا التَّوحيـد إلى ثلاثة أقسـام: «واحد في ذاته لا قسـيم له، وواحد في صـفاته لا شبيه له، وواحد في أفعاله لا شريك له»[8].

وأشـهر أنـواع التَّوحيـد عندهـم النَّوع الثَّالث: ويعنون به توحيد الرُّبوبيَّة، وهو أجود ما اعتصـموا به من الإسلام، وقد تعبوا في تقريـره وإثباتـه، مع أنَّه مركـوز في الفطر، مسـتقرٌّ في أذهان العقـلاء، ولم يذهب إلى نقيضه طائفة معروفة من بني آدم.

فمسـمَّى التَّوحيـد عندهـم ليـس هـو إلاَّ إثبـات التَّوحيـد لله في إنشـاء الخلـق واختراعهم وفيما يسـتحقُّه من الصِّـفات، فلا ذكـر عندهم لتوحيد العبـادة، هذا مع الباطل الَّذي قرَّروه في توحيد الصِّـفات من تعطيل وتشبيه.

يقول شـيخ الإسـلام: «وهؤلاء يفسِّرون التَّوحيد واسـم الله الواحد في أصول دينهم بثلاثـة معان، وليس في شـيء منها التَّوحيد الَّذي بعث الله به رسله وأنزل به كتبه»[9].

وقـال في موضـع آخـر: «وبهـذا وغيره يعرف ما وقع من الغلط في مسـمَّى التَّوحيد، فإنَّ عامَّـة المتكلِّمين الَّذين يقرِّرون التَّوحيد في كتب الكلام والنَّظـر؛ غايتهم أن يجعلوا التَّوحيـد ثلاثة أنـواع، فيقولـون: هو واحد في ذاته لا قسـيم لـه، وواحد في صـفاته لا شـبيه لـه، وواحـد في أفعاله لا شـريك له، وأشـهر الأنواع الثَّلاثة عندهـم هو الثَّالث، وهـو توحيد الأفعـال، وهـو أنَّ خالق العالم واحد»[10].

وأمَّا عن مفهوم الشِّرك عندهم، فهم لا يعرفون الشِّرك إلاَّ في الخلق والإيجاد.

يقـول الغـزالي: «وأمَّا قولنـا «لا ندَّ له» نعني به أنَّ ما سـواه هـو خالقه لا غير»[11]، وأنَّ الرَّجل لا يكون مشـركًا إلاَّ إذا اعتقد أنَّ لغير الله تأثيرًا؛ فلو دعا غير الله، أو استغاث بغـير الله، ولم يعتقد في المدعو والمسـتغاث به شـيئًا فليس هو بمشرك البتَّة، بل هو من أولياء الله الصَّالحين وعباده المؤمنين.

والَّذي جرَّهم إلى القول بذلك، شبهات واهيـة، مبناها على الهـوى واتِّبـاع الظَّنِّ، وقلب للحقائق الشَّـرعيَّة الثَّابتة، نعوذ بالله من الخذلان[12].

ثانيًا ـ انحرافهم في تفسير كلمة التَّوحيد:

ومـن انحرافاتهـم ـ أيضًـا ـ في مفهـوم التَّوحيد؛ انحرافهم في تفسير كلمة التَّوحيد «لا إله إلاَّ الله»، فهم يفسِّرونها بغير معناها الشَّرعي الدَّالَّة عليه، ويَقصرونها على أحد معانيها المتضـمِّنة له؛ وهي قدرته ـ سبحانه وتعالى ـ على اختراع الأعيان.

ففسَّروا الإلهيَّة: بالقدرة على الاختراع، والإلـه: هـو بمعنى القـادر علـى الاختراع، والعباد المألوهين: بمعنى المربوبين.

يقول عبد القاهر البغـدادي: «واختلف أصـحابنا في معنـى الإله: فمنهـم من قال إنَّه مشـتقٌّ مـن الإلهيَّـة، وهـي قدرته على اخـتراع الأعيـان، وهو اختيار أبي الحسـن الأشعري»[13].

ويقـول الشَّهرسـتاني: «ودلالـة التَّمانع في القرآن الكريم مسـرودة علـى من يثبت خالقًا من دون الله ـ سـبحانه وتعالى ـ، قال الله تعـالى: ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ [المؤمنون: 91]، وعن هذا صـار أبو الحسـن [الأشـعري] رَحِمَهُ اللَّهُ إلى أنَّ أخصَّ وصف الإله: هـو القدرة على الاختراع، فلا يشـاركه فيه غـيره، ومـن أثبـت فيه شـركة فقـد أثبت إلَهَيْن»[14].

وهذا لا شـكَّ أنَّه تفسير باطل، مخالف لِما قرَّره أئمَّة اللُّغة المشهورون[15] وأهل العلم المعتبرون.

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وليـس المـراد بالإلـه: هو القـادر على الاخـتراع، كمـا ظنَّـه مـن ظنَّـه مـن أئمَّة المتكلِّمـين؛ حيث ظنُّوا أنَّ الإلهيَّة هي القدرة على الاخـتراع دون غيره، وأنَّ مـن أقرَّ بأنَّ الله هو القادر على الاختراع دون غيره فقد شـهد «أن لا إله إلاَّ هو»، فإنَّ المشركين كانوا

(6) «نقض الدَّارمي على بشر المريسي» (ص 6).
(7) «شرح الأصبهانية» (ص 85)، وانظر ـ أيضًا ـ «مجموع الفتاوى» (3/101).
(8) انظر على سبيل المثال: «الشَّامل» للجويني (ص169)، و«نهاية الإقدام» للشهرستاني (ص56).
(9) «التِّسعينيَّة» (3/74).
(10) «مجموع الفتاوى» (3/97 ـ 98).
(11) «الاقتصاد» (ص49).
(12) لمزيد من البيان والإيضاح انظر: «منهج أهل السُّنَّة والجماعة ومنهج الأشاعرة في توحيد الله تعالى» للشَّيخ خالد بن عبد اللَّطيف (1/185 ـ 195).
(13) «أصول الدِّين» للبغدادي (ص113).
(14) «نهاية الإقدام» (ص56 ـ 57).
(15) انظر: «معجم مقاييس اللُّغة» (1/127)، و«القاموس المحيط» (ص1603)، و«المفردات» للرَّاغب (ص21)، و«الصِّحاح» للجوهري (6/2224).

يقرُّون بهذا وهم مشركون، كما تقدَّم بيانه، بل الإلـه الحقُّ هو الَّذي يستحقُّ بأن يُعبد، فهـو إلـه بمعنى مألـوه، لا إله بمعنى آله، والتَّوحيد أن يعبد الله وحده لا شريك له، والإشراك أن يجعل مع الله إلها آخر»[16].

ثالثًا ـ انحرافهم في حكم التَّوحيد:

وثالث انحرافاتهم ـ وانحرافاتهم كثيرة ـ انحرافهم في أوَّل واجب على المكلَّف، فالتَّوحيد الَّذي هو إفراد الله ﷻ بالعبادة، وإخلاص الدِّين له؛ هو أوَّل واجب على العبيد، هذا حكمه في كتاب الله، وسنَّة رسوله ﷺ، ففي الحديث الصَّحيح قوله ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه لمَّا بعثه إلى اليمن: «**فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللهَ**»، وغير ذلك من الأحاديث.

لكنَّ هؤلاء المتكلِّمين؛ لمَّا كانت معرفة الله ﷻ عندهم لا تحصل إلاَّ بالنَّظر، وأنكروا أن تقع ضرورة في قلوب العباد، قالوا بوجوب النَّظر، وتفرَّع على ذلك قولهم بأنَّ أوَّل واجب على المكلَّف هو النَّظر المفضي إلى العلم بحدوث العالم.

وهذا القول هو في الأصل من مسائل الجهميَّة والمعتزلة، وتبعهم على ذلك الأشاعرة.

ولهذا قال أبو جعفر السمناني الحنفي ـ وهو من رؤوس الأشاعرة ـ هذه المسألة بَقِيَّةٌ بَقِيَت في المذهب من الاعتزال لمن اعتقدها[17].

وهذا القول ـ وهو إنَّ أوَّل واجب على المكلَّف النَّظر ـ قد نسب إلى أبي الحسن الأشعري[18]، وقال به أيضًا الباقلاَّني[19]، وذهب بعضهم إلى أنَّ أوَّل واجب على المكلَّف هو المعرفة ويُعْزَى لأبي الحسن الأشعري أيضًا[20]، وذهب بعضهم إلى أنَّ أوَّل واجب القصد إلى النَّظر؛ لأنَّه يسبق النَّظر، وهذا قاله ابن فورك[21]، والجويني[22]، وغيرهما، وذهب آخرون إلى أنَّ أوَّل واجب هو أوَّل جزء النَّظر، وهذا محكيٌّ عن الباقلاَّني أيضًا[23]، وذهب بعضهم إلى أنَّ أول واجب هو الشَّكُّ السَّابق على القصد؛ لأنَّه لا يكون قصد النَّظر إلاَّ بعد شكٍّ، وهذا قال به أبو هاشم من المعتزلة وطائفة معه[24]، وهذا القول الأخير من لم يوجبه من الموافقين على أصل القول، قال: إنَّه لابدَّ من حصوله، وإن لم يؤمر به[25].

فهذه أقوالهم قد اختلفت وافترقت في أوَّل ما يجب على العباد، ولو أنَّهم رجعوا إلى كتاب ربِّهم، وسنَّة نبيِّه ﷺ لاجتمعت وما افترقت: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 82].

وأقوال المتكلِّمين هذه كلُّها باطلة مردودة بأدلَّة الشَّرع، ويدفعها جميعها من أصلها أدلَّة الكتاب والسُّنَّة الدَّالَّة على أنَّ معرفة الله ﷻ فطريَّة، مركوزة في قلوب النَّاس.

قال ابن حجر العسقلاني رحمه الله: «وقد ذكرت في كتاب «الإيمان»[26] من أعرض عن هذا من أصله وتمسَّك بقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: 30]، وحديث: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ**»[27]»[28].

نتائج هذا الانحراف وآثاره

فهذه جمل يسيرة، اشتملت على بعض انحرافات القوم في أهمِّ المطالب الدِّينيَّة، وأعلى المقاصد الشَّرعيَّة؛ ألا وهو توحيد ربِّ البريَّة، ولقد أنتج هذا الانحراف العلمي آثاره في الانحراف العملي الَّذي ظهر فيما رصدته كتب التَّراجم وغيرها عن أفراد المتكلِّمين وآحادهم من التَّهاون بفرائض الإسلام والتَّلاعب بها، وانتشار الفسق فيهم واقتراف المعاصي والآثام، بل والأدهى من ذلك الوقوع في براثن الشِّرك والردَّة عن دين الله، نسأل الله الثَّبات على الدِّين.

يقول الإمام الحافظ قوَّام السُّنَّة:

«قال لنا الإمام أبو المظفر السَّمعاني رحمه الله: «...وهل رأى أحد متكلِّمًا أدَّاه نظره وكلامه إلى تقوى في الدِّين أو ورع في المعاملات، أو سداد في الطَّريقة، أو زهد في الدُّنيا، أو إمساك عن حرام، وشبهة، أو خشوع في عبادة، أو ازدياد من طاعة، أو تورُّع في معصية، إلاَّ الشَّاذَّ النَّادر، قل لو قلبت القصَّة كنت صادقًا؛ تراهم أبدًا منهمكين في كلِّ فاحشة، ملتبسين بكلِّ قاذورة، لا يرعوون عن قبيح، ولا يرتدعون من باطل إلاَّ من عصمه الله، فلئن دلَّهم النَّظر اليقين وحقيقة التَّوحيد، فليس ثمرة اليقين هذا، وتعسًا لتوحيد أداهم إلى مثل هذه الأشياء وأوردهم هذه المتالف في الدِّين.

ومن الله التَّوفيق وحسن المعونة»»[29].

---

(16) «مجموع الفتاوى» (3/101).
(17) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» لأبي عبد الله القرطبي (7/314 ـ 315)، و«درء التَّعارض» (7/407، 461)، و«فتح الباري» (13/349).
(18) «عمدة أهل التَّوفيق والتَّسديد في شرح عقيدة أهل التَّوحيد» لأبي عبد الله السَّنوسي (ص7).
(19) «الإنصاف» (ص29).
(20) «عمدة أهل التَّوفيق» (ص7).
(21) «المواقف» للإيجي (ص32)، و«فتح الباري» (13/349).
(22) «الإرشاد» (ص25).
(23) «عمدة أهل التَّوفيق» (ص7).
(24) «المواقف» (32).
(25) انظر: «درء التَّعارض» (7/419 ـ 421).
(26) «فتح الباري» (1/70).
(27) متَّفق عليه: البخاري (1385)، ومسلم (2658).
(28) «فتح الباري» (13/349).
(29) «الحجَّة في بيان المحجَّة» (1/121 ـ 122) لقوام السُّنَّة أبي القاسم إسماعيل بن محمد التيمي الأصبهاني.

ويقول شيخ الاسلام ابن تيمية: «وأبو محمَّد بن قتيبة - في أوَّل كتاب «مختلف الحديث» - لما ذكر أهل الحديث وأئمَّتهم، وأهل الكلام وأئمَّتهم: كفى بذكر أئمَّة هؤلاء ووصف أقوالهم وأعمالهم؛ ووصف أئمَّة هؤلاء، وأقوالهم وأفعالهم بما يبيِّن لكلِّ أحد أنَّ أهل الحديث هم أهل الحقِّ والهدى، وأنَّ غيرهم أولى بالضَّلال والجهل والحشو والباطل.

وأيضًا المخالفون لأهل الحديث هم مظنَّة فساد الأعمال: إمَّا عن سوء عقيدة ونفاق، وإمَّا عن مرض في القلب وضعف إيمان، ففيهم من ترك الواجبات، واعتداء الحدود والاستخفاف بالحقوق، وقسوة القلب ما هو ظاهر لكلِّ أحد، وعامَّة شيوخهم يُرمون بالعظائم، وإن كان فيهم من هو معروف بزهد وعبادة، ففي زهد بعض العامَّة من أهل السُّنَّة وعبادته ما هو أرجح ممَّا هو فيه»[30].

هذا؛ وقد رصدت لنا كتب التَّراجم والسِّير، عن آحاد المتكلِّمين من الرُّؤساء المتبوعين تلبسهم ببعض المعاصي والذُّنوب، من شرب للخمر، واختلاس للأموال، وتهاون في بعض العبادات كالصَّلاة وغيرها، حتَّى اشتهروا بذلك بين العامَّة والخاصَّة، وفي التَّعميم ما يغني عن التَّعيين.

وأبلغ من ذلك كلِّه «أنَّ منهم من يصنِّف في دين المشركين، والرِّدَّة عن الاسلام؛ كما صنَّف الرَّازي كتابه في عبادة الكواكب والأصنام[31] وأقام الأدلَّة على حسن ذلك ومنفعته ورغَّب فيه، وهذه ردَّة عن الإسلام باتِّفاق المسلمين، وإن كان قد يكون تاب منه وعاد إلى الإسلام»[32].

وقال في موضع آخر: «ولهذا كان من أتباع هؤلاء من يسجد للشَّمس والقمر والكواكب، ويدعوها كما يدعو الله تعالى، ويصوم لها، وينسك لها، ويتقرَّب إليها، ثمَّ يقول: إنَّ هذا ليس بشرك، وإنَّما الشِّرك إذا اعتقدت أنَّها هي المدبِّرة لي، فإذا جعلتها سببًا وواسطة لم أكن مشركًا»[33].

وعلَّة هذا الانحراف؛ أنَّ من كان مفهوم التَّوحيد عنده هو مجرَّد إثبات الرُّبوبيَّة، وأنَّ خالق العالم واحد لا شريك له، ولا ذكر عنده للغاية العظمى الَّتي خلق من أجلها الجنّ والإنس؛ وهي إفراد الله ﷻ بالألوهيَّة وإخلاص العبوديَّة له - سبحانه وتعالى -، فلا يستبعد وقوع مثل هذه المنكرات منه، واستصغاره للكبائر والذُّنوب، والولوج في الشِّركيَّات الصَّريحة والدَّعوة إليها باللِّسان والمقال، حتَّى انساق وراءهم كثير من النَّاس - إلاَّ من رحم الله - خاصَّة أولئك الَّذين نشأوا على تلقُّن مناهج المتكلِّمين، فانتشرت في أوساطهم أصناف من المعاصي والبدع والشِّركيَّات؛ من دعاء للأموات، والاستغاثة بهم في الملمَّات، والتَّقرُّب لهم بالذَّبائح والنُّذور، والأموال والشُّموع، وشدِّ الرِّحل إليهم بالزِّيارة، والطَّواف حولها بخشوع وطمأنينة، والتَّمسُّح بتربتها، مع التَّزوُّد بها للبركة، وطلب الرِّزق والأموال والأولاد منها، والاستنجاد بها لدفع الضُّرِّ والبلاء، إلى غير ذلك من مظاهر الشِّرك الَّتي انتشرت في كثير من بلدان المسلمين.

ومع هذا كلِّه إذا جاءهم داعي الله، فحذَّرهم وأنذرهم، ورغَّبهم ورهَّبهم، وتلا عليهم الآيات من القرآن الكريم، وقرأ عليهم أحاديث سيِّد الأوَّلين والآخرين ﷺ، الَّتي فيها الأمر بالتَّوحيد وإخلاص العبادة لربِّ العالمين، والنَّهي عن الشِّرك ودعاء غير الله؛ تبرَّؤوا من ذلك كلِّه أشدّ التَّبرُّؤ، وردُّوا عليه قوله، وأنكروا عليه تسميته ذلك بأنَّه شرك، وقالوا: ما عبدناهم ولا دعوناهم من دون الله؛ بل هم شفعاؤنا عند الله، والواسطة بينا وبينه، نتوسَّل بهم إليه؛ لأنَّنا مذنبون مقصِّرون، وهم مؤمنون صالحون - هكذا سوَّل لهم الشَّيطان أعمالهم -، ثمَّ لم يكتفوا بذلك، بل راحوا يُذكِّرونه بأنَّهم على التَّوحيد، وأنَّهم يقولون «لا إله إلاَّ الله»؛ وأنَّهم على الإسلام الصَّحيح، ولا تعجب من هذا كلِّه؛ لأنَّك إذا دقَّقت النَّظر في هؤلاء، وفكَّرت في حالهم؛ تحقَّق عندك أنَّ العلَّة في ذلك هو نشأة هؤلاء على مناهج المتكلِّمين في الاعتقاد، فهم تعلَّموا التَّوحيد الَّذي قرَّره هؤلاء المتكلِّمون، وإن لم يحسنوا عباراتهم، فقد يكون الجدّ الأوَّل قد تعلَّمها ثمَّ توارثها من بعده الأبناء، دون القدرة على التَّعبير عليها، وفتحوا أعينهم على كتبهم، فلم يجدوا فيها أنَّ ما هم عليه يناقض التَّوحيد من أصله، ولم يجدوا للشِّرك فيها معنًى إلاَّ ادِّعاء شريك لله في الخلق والإيجاد، ولا للتَّوحيد معنًى إلاَّ إثبات الوحدانيَّة في الرُّبوبيَّة، ثمَّ هذا الخالق لا صفة له تقوم به يعرف بها يمكن معها التَّوجُّه بالعبادة له والتَّقرُّب إليه بالطَّاعة، فاتِّخاذ الوسائط إليه ليس بمنكر على هذا الاعتقاد.

وبعد؛ فهذه لوثة الكلام أردَتْ بأهله في الضَّلال، وجرَّت العامَّة معها فيه، فنسأل الله الكريم أن يردَّ المسلمين إلى دينه ردًّا جميلاً، إنَّه وليُّ ذلك والقادر عليه.

والحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على سيِّد الأوَّلين والآخرين.

---

(30) «مجموع الفتاوى» (4/53).

(31) هو كتاب: «السِّرُّ المكتوم في مخاطبة الشَّمس والقمر والنُّجوم»، وقد أثبت نسبة الكتاب للرَّازي؛ محمَّد صالح الزَّركان في كتابه «فخر الدِّين الرَّازي وآراؤه الكلامية والفلسفية»، وصنَّفه ضمن مجموعة الكتب الثَّابتة عنه، انظر (ص 109 - 111).

(32) «مجموع الفتاوى» لشيخ الاسلام ابن تيمية (4/55).

(33) «درء التَّعارض» (1/227).



القول المختصر في بيان موقف المستشرقين من عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر

أسامة العتيبي

■ المدينة النبوية

إنَّ الله تعالى قد تكفَّل بحفظ دينه، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [سورة الحجر]، وهيَّأ لدينه حملة يحملونه ويحمونه، كما قال النَّبيُّ ﷺ: «يَحْمِلُ هَذَا العِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلَفٍ عُدُولُهُ؛ يَنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الغَالِينَ، وَانْتِحَالَ المُبْطِلِينَ، وَتَأْوِيلَ الجَاهِلِينَ»[1].

وما زال أهل الشَّرِّ والضَّلال يكيدون لدين الإسلام، ويحاولون تشويهه، وتصويره بالصُّور المنفِّرة، وما زال أهل السُّنَّة قائمين بالذَّبِّ عن حياض الإسلام، كاشفين لتلبيس الملبِّسين، وعبث العابثين.

ومن أهل الشَّرِّ والفساد الَّذين يجري في دمائهم التَّلبيس والتَّدليس المستشرقون الَّذين يرجع غالبهم إلى اليهود والنَّصارى الَّذين قال الله فيهم: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ [سورة آل عمران].

ومن محاولاتهم العبثيَّة الَّتي بنوها على ضلالهم وجهلهم بدين الحقِّ، والَّتي بنوا عليها محاولة تشويههم دين الإسلام؛ ما يتعلَّق بعقيدة القضاء والقدر.

فكان هذا البحث لعرض شيء من تمويهاتهم وكشف زَيْفها، وسمَّيته:

«القول المختصر في بيان موقف المستشرقين من عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر».

(1) رواه ابن أبي حاتم في «الجرح والتَّعديل» (17/2)، والبيهقي في «السُّنن الكبرى» (209/10)، وابن عبدالبرِّ في «التَّمهيد» (59/1)، والخطيب البغدادي في «شرف أصحاب الحديث» (ص29) عن إبراهيم العذري به، ونقل الخطيب البغدادي عن الإمام أحمد تصحيحه للحديث مع أنَّه مرسل، وللحديث شواهد؛ لذلك صحَّحه شيخنا الألباني رحمه الله في تعليقه على «مشكاة المصابيح» (248).

المبحث الأول:
الإيمان بالقضاء والقدر عند أهل السُّنَّة والجماعة

الإيمان بالقدر خيره وشرِّه هو الرُّكن السَّادس من أركان الإيمان الَّتي لا يصحُّ عمل عامل إلاَّ بالإيمان به، كما جاء في القرآن الكريم وسنَّة نبيِّنا ﷺ، وعلى ما كان عليه أهل القرون المفضَّلة ـ رحمهم الله ـ.

وهو الإيمان بأَنَّ الله ﷻ عَلِمَ مَقَادِيرَ الأَشْيَاءِ وَأَزْمَانَهَا أَزَلاً، ثُمَّ أَوْجَدَهَا بقُدْرَته وَمَشيئَته عَلَى وَفْقِ مَا عَلِمَهُ منْهَا، وَأَنَّهُ كَتَبَهَا فِي اللَّوْح قَبْلَ إحْدَاثهَا[2].

قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ۝٣٨﴾ [الأحزاب]، وقال تعالى: ﴿وَلَكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: 42، 44]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ۝٣٧﴾ [الأحزاب]، وقال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝١١﴾ [التغابن]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ۝١٦٦﴾ [آل عمران]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ۝١٥٦ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ۝١٥٧﴾ [البقرة].

وفي حديث جبريل أنَّ النَّبيَّ ﷺ ذكر له من الإيمان: «**وَتُؤْمِنَ بالقَدَرِ خَيْرِه وَشَرِّه**»[3].

وقال ﷺ: «**وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ**»[4].

وقال ﷺ: «**وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلاَ تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ**»[5].

وقال ﷺ: «**كُلُّ شَيْءٍ بقَدَرٍ حَتَّى العَجْزُ والكَيْسُ**»[6].

والإيمان بالقدر على أربع مراتب:

المرتبة الأولى: الإيمان بعلم الله المحيط بكلِّ شيء الَّذي لا يعزب عنه مثقال ذرَّة في السَّماوات ولا في الأرض، وأنَّه تعالى قد علم جميع خلقه قبل أن يخلقهم، وعلم أرزاقهم وآجالهم وأقوالهم وأعمالهم وجميع حركاتهم وسكناتهم وسرِّهم وعلانيتهم ومن هو منهم من أهل الجنَّة ومن هو منهم من أهل النَّار.

المرتبة الثَّانية: الإيمان بكتابة ذلك، وأنَّه تعالى قد كتب جميع ما سبق به علمه أنَّه كائن، وفي ضمن ذلك الإيمان باللَّوح والقلم.

المرتبة الثَّالثة: الإيمان بمشيئة الله النَّافذة وقدرته الشَّاملة، وهما متلازمتان من جهة ما كان وما سيكون، ولا ملازمة بينهما من جهة ما لم يكن ولا هو كائن؛ فما شاء الله تعالى فهو كائن بقدرته لا محالة، وما لم يشأ الله تعالى لم يكن لعدم مشيئة الله إيَّاه، لا لعدم قدرة الله عليه، تعالى الله عن ذلك وعزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ۝٤٤﴾ [فاطر].

المرتبة الرَّابعة: الإيمان بأَنَّ الله تعالى خالق كلِّ شيء، وأنَّه ما من ذرَّة في السَّماوات ولا في الأرض ولا فيما بينهما إلاَّ والله خالقها وخالق حركاتها وسكناتها سبحانه، لا خالق غيره ولا ربَّ سواه[7].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وَتُؤْمِنُ الفِرْقَةُ النَّاجِيَةُ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ بالقَدَرِ خَيْرِه وَشَرِّه وَالإِيمَانُ بالقَدَرِ عَلَى دَرَجَتَيْنِ؛ كُلُّ دَرَجَةٍ تَتَضَمَّنُ شَيْئَيْنِ:

فالدَّرجة الأولى: الإيمان بأنَّ الله تعالى عليم بما الخلق عاملون بعلمه القديم الَّذي هو موصوف به أزلاً وأبدًا، وعلم جميع أحوالهم من الطَّاعات والمعاصي والأرزاق والآجال، ثمَّ كتب الله في اللَّوح المحفوظ مقادير الخلق...

وهذا التَّقدير التَّابع لعلمه ـ سبحانه ـ يكون في مواضع جملةً وتفصيلاً، فقد كتب في اللَّوح المحفوظ ما شاء، وإذا خلق جسد الجنين قبل خلق الرُّوح فيه؛ بعث إليه ملكًا فيُؤمر بأربع كلمات، فيُقال له: اكتب رزقه وأجله وعمله وشقيٌّ أم سعيدٌ، ونحو ذلك.

فهذا التَّقدير قد كان ينكره غلاة القدريَّة قديمًا ومنكروه اليوم قليل.

وأمَّا الدَّرجة الثَّانية: فهي مشيئة الله النَّافذة وقدرته الشَّاملة، وهو الإيمان بأنَّ ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنَّه ما في السَّموات وما في الأرض من حركة ولا سكون إلاَّ بمشيئة الله سبحانه، لا يكون في ملكه ما لا يريد، وأنَّه ـ سبحانه ـ على كلِّ شيء قدير من الموجودات والمعدومات.

فما منْ مخلوق في الأرض ولا في السَّماء إلاَّ الله خالقه ـ سبحانه ـ لا خالق غيره ولا ربَّ سواه، ومع ذلك فقد أمر العباد بطاعته وطاعة رسله ونهاهم عن معصيته، وهو ـ سبحانه ـ يحبُّ المتَّقين والمحسنين والمقسطين، ويرضى عن الَّذين آمنوا وعملوا الصَّالحات، ولا يحبُّ الكافرين، ولا يرضى

---

(2) «شرح العقيدة الواسطيَّة» لمحمَّد خليل هرَّاس (ص27).

(3) رواه مسلم في «صحيحه» (8) من حديث عبدالله ابن عمر عن عمر رضي الله عنه.

(4) رواه الإمام أحمد في «المسند» (185/5)، وأبو داود في «سننه» (4699)، وابن ماجه في «سننه» (65)، من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه، وصحَّحه الشَّيخ الألباني في «صحيح الجامع» (5120).

(5) رواه مسلم في «صحيحه» (2664) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(6) رواه مسلم في «صحيحه» (2655) من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

(7) انظر لشرحها وأدلَّتها: «شفاء العليل» لابن القيِّم (ص29 ـ 54)، و«أعلام السُّنَّة المنشورة» للشَّيخ حافظ الحكمي (ص126).

عن القوم الفاسقين، ولا يأمر بالفحشاء، ولا يرضى لعباده الكفر، ولا يحبُّ الفساد.

والعباد فاعلون حقيقةً، والله خالق أفعالهم، والعبد هو المؤمن والكافر والبرُّ والفاجر والمصلِّي والصَّائم.

وللعباد القدرة على أعمالهم، ولهم إرادة، والله خالقهم وخالق قدرتهم وإرادتهم، كما قال الله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٢٩)﴾ [سورة التكوير]»[8].

قال الشَّيخ محمَّد الأمين الشَّنقيطي رحمه الله عند تفسيره قوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ (١٤٩)﴾ [سورة الأنعام]: «فملكه تعالى وحده للتَّوفيق والهداية، هو الحجَّة البالغة على خلقه، يعني فمن هديناه وتفضَّلنا عليه بالتَّوفيق، فهو فضل منَّا ورحمة، ومن لم نفعل له ذلك فهو عدل منَّا وحكمة؛ لأنَّه لم يكن له ذلك دينًا علينا ولا واجبًا مستحقًّا يستحقُّه علينا، بل إنْ أعطينا ذلك ففضل، وإن لم نُعطِه فعدلٌ، وحاصل هذا أنَّ الله ـ تبارك وتعالى ـ قدر مقادير الخلق، قبل أن يخلق الخلق، وعلم أنَّ قومًا صائرون إلى الشَّقاء، وقومًا صائرون إلى السَّعادة، فريق في الجنَّة وفريق في السَّعير.

وأقام الحجَّة على الجميع، ببعث الرُّسل وتأييدهم بالمعجزات الَّتي لا تترك في الحقِّ لَبْسًا، فقامت عليهم حجَّة الله في أرضه بذلك»[9].

وقال رحمه الله: «ولا يَخفَى تصريح القرآن بأن الله تعالى خالق كلِّ شيء، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: 16]، وقال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا (٢)﴾ [سورة الفرقان]، وقال: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: 3]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ (٤٩)﴾ [سورة القمر]»[10].



المبحث الثَّاني

موقف المستشرقين من عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر والرَّدُّ عليهم:

المطلب الأوَّل: موقف المستشرقين من عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر:

من المعلوم أنَّ من مقاصد المستشرقين تشكيك المسلمين في عقائدهم، ومحاولة تنفيرهم عنها، وهذا ما وقع منهم فيما يتعلَّق بعقيدة الإيمان بالقضاء والقدر، حيث قال المستشرق «جيته»: «إنَّ هذه العقيدة فكرة إسلاميَّة خاصَّة، وإنَّ المحمَّديِّين يقومون بتعليمها إلى شبابهم على أنَّه لا يصيبهم إلاَّ ما قدَّر الله ودبَّر بإرادته، وهذا أساس دينهم منذ الأزل»[11].

فهذا المستشرق يزعم أنَّ الإيمان بالقضاء والقدر، وأنَّ ما يصيب المرء إنَّما هو بقدر الله وإرادته وتدبيره عقيدة خاصَّة بالمسلمين! مع أنَّها من العقيدة الَّتي اتَّفق عليها الأنبياء والمرسلون ـ عليهم الصَّلاة والسَّلام ـ كما سيأتي بيانه، إن شاء الله.

وزعم المستشرقون أنَّ الإيمان بهذه العقيدة كان سببًا في تخلُّف المسلمين عن ركب الحضارة، وكان دعوة إلى التَّواكل والخمول والكسل وعدم السَّعي للعمل اعتمادًا على أنَّ الله قدَّر عليهم كلَّ شيء، وأنَّه لن يصيبهم إلاَّ ما كتب لهم، فهم نتيجةً لهذا المعتقد مستسلمون.

قال جولد تسهير: «إنَّ هذه الآيات بينها تناقض وتنافر وهي سبب وجود المذاهب المتعارضة في الإسلام في مسألة حريَّة الإرادة والقدرة»[12].

وهذا الكلام باطلٌ واضحُ البطلان عقيدةً وتاريخًا وواقعًا، كما سيأتي ذكره، إن شاء الله.

وزعم المستشرقون أنَّ نبيَّنا ﷺ في الأزمان الأولى للعصر المكِّي كان يتلو آيات تتَّجه إلى حريَّة الاختيار والمسؤوليَّة، ويقبلها تمامًا[13].

أمَّا في المدينة؛ فكان يذكر آيات تتَّجه للجبر، لذا فالتَّعاليم الأكثر جبريَّة تميَّزت بها فترة المدينة!!

وهذا من جهلهم وضلالهم، فالعقيدة الإسلاميَّة بعيدة عن غلوِّ الجبريَّة وجفاء القدريَّة، بل هي عقيدةٌ وسطٌ، بلا إفراط ولا تفريط، كما سبق بيانه في المبحث الأوَّل.

---

(8) «العقيدة الواسطيَّة» لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص34 ـ 38).

(9) «أضواء البيان» (7/238 ـ 239).

(10) المصدر السَّابق (7/324 ـ 325).

(11) انظر: «من افتراءات المستشرقين على الأصول العقديَّة في الإسلام» (ص251).

(12) المصدر السَّابق (ص252).

(13) المصدر السَّابق.

المطلب الثَّاني: الرَّدُّ على شبهات ومزاعم المستشرقين في عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر:

تتلخَّص مزاعم المستشرقين حول عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر أنَّها عقيدةٌ خاصَّة بالمسلمين، وأنَّها تدعو إلى الخمول والاستسلام للواقع، وأنَّها تتَّجه للجبر!

وهذا باطل بما يلي:

أولاً: أنَّهم زعموا في القول الأوَّل أنَّ هذه العقيدة الَّتي يعلِّمها المسلمون لشبابهم، والَّتي يخضع المرء فيها لمشيئة الله وتقديره عقيدةٌ مبتدعة عند المسلمين وخاصَّة بهم، وهذا قول مخالف للواقع؛ «لأنَّ الشُّعور بالسُّلطة العليا معروف في أديان الله كلِّها، وليست خاصَّة بالمسلمين»[14].

بالإضافة إلى أنَّه معروف في النِّحَل والفلسفات القديمة، وإن كان هناك انحراف عن الأديان في مفهوم القدر.

وقد قال تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿ وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ (١٥٥) ﴾ [الأعراف].

قال ابن كثير رحمه الله: «وقوله: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ﴾، أي: ابتلاؤك واختبارك وامتحانك...، يقول: إن الأمرُ إلاَّ أمرُك، وإنِ الحكمُ إلاَّ لك، فما شئت كان، تضلُّ من تشاء، وتهدي من تشاء، ولا هاديَ لمن أضْلَلْتَ، ولا مُضلَّ لمن هَدَيت، ولا مُعطيَ لِمَا مَنَعت، ولا مانع لِمَا أعطيت، فالملك كلُّه لك، والحكم كلُّه لك، لك الخلق والأمر»[15].

(14) انظر: «من افتراءات المستشرقين على الأصول العقديَّة في الإسلام» (ص252).
(15) «تفسير ابن كثير» (2/251).

ومن الآيات الَّتي تبيِّن أنَّ عقيدة الإيمان بالقدر كانت عند من قبلنا من الأنبياء والرُّسل ـ عليهم الصَّلاة والسَّلام ـ:

قال تعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ (٣٣) وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ (٣٤) ﴾ [هود].

وقال عز وجل: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ (١٠٢) ﴾ [الصافات].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ (١٠٠) ﴾ [يوسف].

وقال تعالى: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ (٣٧) هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ (٣٨) فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (٣٩) قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ (٤٠) ﴾ [آل عمران].

فتبيَّن أنَّ عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر عقيدةٌ اتَّفقت عليها الرِّسالات السَّماوية، وأنَّ المستشرقين يسيرون في فلك اللاَّدينيَّة والوثنيَّة.

ثانيًا: وأمَّا زعمهم أنَّ الإسلام يدعو إلى الكسل والتَّواكل فهذا باطل نقلاً وواقعًا.

1 ـ فقد حثَّ الله في كتابه الكريم على العمل، وقرن العمل الصَّالح بالإيمان في مواطن كثيرة جدًّا من كتابه، بل أجمع أهل السُّنَّة والجماعة على أنَّ الإيمان قولٌ وعمل، وأنَّه لا ينفع إيمانٌ بلا عمل.

قال تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ (١٠٥) ﴾ [التوبة].

قال الإمام الآجري في كتاب «الشَّريعة»: «اعلموا ـ رحمنا الله وإيَّاكم ـ يا أهل القرآن، ويا أهل العلم بالسُّنن والآثار، ويا معشر من فقَّههم الله تعالى في الدِّين، بعلم الحلال والحرام؛ أنَّكم إن تدبَّرتم القرآن، كما أمركم الله تعالى؛ علمتم أنَّ الله تعالى أوجب على المؤمنين بعد إيمانهم به وبرسوله: العملَ، وأنَّه تعالى لم يثن على المؤمنين بأنَّه قد رضي عنهم، وأنَّهم قد رَضُوا عنه، وأثابهم على ذلك الدُّخول إلى الجنَّة، والنَّجاة من النَّار، إلاَّ بالإيمان والعمل الصَّالح.

وقرن مع الإيمان العمل الصَّالح، لم يدخلهم الجنَّة بالإيمان وحده، حتَّى ضمَّ إليه العمل الصَّالح، الَّذي وفَّقهم له، فصار الإيمان لا يتمُّ لأحد حتَّى يكون مصدِّقًا بقلبه، وناطقًا بلسانه، وعاملاً بجوارحه، لا يخفى على من تدبَّر القرآن وتصفَّحه، وجَدَهُ كما ذكرتُ.

واعلموا ـ رحمنا الله تعالى وإيَّاكم ـ أنِّي قد تصفَّحتُ القرآن؛ فوجدت فيه ما ذكرته في شبيه من خمسين موضعًا من كتاب الله عز وجل: أنَّ الله ـ تبارك وتعالى ـ لم يدخل

المؤمنين الجنَّة بالإيمان وحده، بل أدخلهم الجنَّة برحمته إيَّاهم، وبما وفَّقهم له من الإيمان والعمل الصَّالح.

وهذا ردٌّ على من قال: الإيمان: المعرفة، وردٌّ على من قال: المعرفة والقول، وإنْ لم يعمل، نعوذ بالله من قائل هذا.

فإن قال قائلٌ: فاذكر هذا الَّذي بيَّنته من كتاب الله تعالى؛ ليستغنيَ غيرُك عن التَّصفُّح للقرآن.

قيل له: نعم، والله تعالى الموفِّق لذلك، والمعين عليه.

قال الله تبارك وتعالى في سورة البقرة: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَـٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَـٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

وقال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾ [سورة البقرة].

وقال - تبارك وتعالى - في سورة آل عمران: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾﴾ ...

إلى أن قال: - كلُّ هذا يدلُّ العاقل على أنَّ الإيمان ليس بالتَّحلِّي ولا بالتَّمنِّي، ولكن ما وقر في القلوب، وصدَّقته الأعمال، كذا قال الحسن وغيره»[16].

فقد «آمن المسلمون الأوائل بالقضاء والقدر، واعتقدوا أنَّ قضاء الله لا بدَّ أن ينفذ، وأنَّ المقادير كلَّها بيده، يصرفها كيف شاء، ويدبِّرها بحكمته وإرادته، ولم يَصرفهم ذلك عن العمل والسَّعي، ولم يركنوا إلى التَّواكل والكسل؛ لأنَّ الله قد حثَّهم على العمل بقوله: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ [سورة التوبة]، وقد نهى الرَّسول ﷺ المسلمين عن الجدل في القدر؛ لأنَّ ذلك يؤدِّي إلى تفرُّقهم، ولكن خاض المسلمون بعد وفاته في مسألة القدر، وظهرت جماعة الجبريَّة الَّذين قالوا بالجبر المطلق، وعلى الرَّغم من أنَّ هذه الفكرة بعيدة عن منطق الإسلام، فقد وجدت لها أنصارًا رأوْا فيها تبريرًا لما هم فيه من ضلال، ولكن لم يُقدَّر لها الرَّواج بين المسلمين في العهود الأولى؛ لأنَّها لا تستند إلى أساس قويٍّ، ولم تستطع أن تصمد أمام المذاهب المناوئة، ثمَّ وجدت الفرصة متاحة لإذاعتها بين المسلمين في عهود الرُّكود الَّتي ساد فيها الجمود الفكري، وابتعد فيها كثير من المسلمين عن روح الدِّين وعن الفهم الصَّحيح لمبادئه، وكان للقمع الاستعماري دورٌ كبير في انتشار هذه الفكرة بين جهلة المسلمين وبعض أهل البدع والضَّلال، حيث أشاعت فيهم التَّواكل والكسل، وأقعدتهم عن العمل»[17].

2. وكلام المستشرقين باطل واقعًا: فالمسلمون الَّذين صحبوا رسول الله ﷺ منذ أن كان في مكَّة، ثمَّ في المدينة - وهم أهل الجدِّ والاجتهاد، - جاهدوا معه، وقاموا بالتَّكاليف الشَّرعيَّة، وبذلوا الغالي والنَّفيس في طاعة الله ورضوانه، ولم يتوانوا ولم يكسلوا، بل كان الكسل في أداء الطَّاعة والتَّواكل هو دأب المنافقين المندسِّين في صفوف المسلمين كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [سورة النساء].

وفي فترة وجيزة الْتَأَمَتْ جزيرةُ العرب كلُّها تحت لواء نبيِّنا ﷺ، وما مات ﷺ إلاَّ وأقرَّ اللهُ عينه بدخول النَّاس في دين الإسلام أفواجًا بكلِّ جدٍّ ونشاط، ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾﴾ [سورة النصر].

ثمَّ بعد وفاته ﷺ قام الخلفاء الرَّاشدون ومن معهم من الصَّحابة رضي الله عنهم والتَّابعين بنشر تعاليم الإسلام، والعمل على إعلاء كلمة الله، فتهاوت - أمام جدِّهم واجتهادهم وفدائهم دينهم بالنَّفس والمال - عروشُ كسرى وقيصر[18]، فهل هذا حال أهل التَّواكل والخمول؟!!

3. وبعض المستشرقين اعترفوا بفضل المسلمين في علوم الدُّنيا، وأنَّهم قد بلغوا فيها مبلغًا عظيمًا، في حين كانت أوروبا ترزح تحت سطوة القساوسة وفي عصور الظَّلام حسب تقسيماتهم، وقد استفاد الأوروبيُّون من علوم المسلمين ما أسَّسوا به فيما بعد حضارتهم ونهضتهم الحديثة.

ومن ذلك ما قاله المستشرق الإنجليزي الشَّهير «ألفريد جيوم» بأنَّ تأثير الحضارة الإسلاميَّة لم تدرك أبعاده بشكل كامل إلى الآن، يقول: «وعندما ترى ضوءَ النَّهار جميعُ الموادِّ النَّفيسة المختزنة في مكتبات أوربا؛ فسيتَّضح لنا أنَّ التَّأثير العربي الباقي في الحضارة الوسيطة لهو أعظم بكثير ممَّا عُرِفَ عنه حتَّى الآن»[19].

«.. أنَّ التَّاريخ يبرهن وراء كلِّ إمكان

(16) انظر: «كتاب الشَّريعة» للآجُرِّي (2/618، 636).

(17) انظر كتاب: «أصول العقيدة الإسلاميَّة» (ص250) تأليف: د. عبد المقصود عبد الغني.

(18) ولعلَّ هذا الأمر من إجلاء اليهود ثمَّ سقوط عروش كسرى وقيصر هو الَّذي يشجِّعهم على الكذب والتَّزوير حقدًا دفينًا وألمًا يعصر قلوبهم بسبب غلبة الإسلام وظهوره على أعدائه من اليهود والنَّصارى والمجوس.

(19) انظر: «الفلسفة وعلم الكلام» لألفريد جيوم (ص401).

للرَّيـب أنَّه ما مِنْ دين أبدًا حثَّ على التَّقدُّم العلميِّ كما حثَّ عليه الإسلام. وأنَّ التَّشجيع الَّذي لقيه العلـم والبحث العلمي من الدِّين الإسـلاميِّ انتهى إلى ذلك الإنتـاج الثَّقافيِّ الباهــر في أيَّام الأمويِّين والعبَّاسـيِّين وأيَّام دولة العرب في الأندلس.

وإنَّ أوروبا لتعرف ذلك حقَّ المعرفة؛ لأنَّ ثقافتهـا هي نفسـها مدينة للإسـلام بتلك النَّهضـة على الأقلِّ بعد قـرون من الظَّلام الدَّامس، نحـن لا نقـول ذلـك إعجابًا منَّا بتلك الذِّكريات المجيدة في زمن هجر العالم الإسـلامي فيه تقاليده الخاصَّة وانتقل إلى العمايـة وإلى الفقـر الفكـري، إذ لا يحـقُّ لنا في بُؤسـنا الحاضـر أن نفتخر بالأمجاد الماضية»[20].

وفي العصـر الحديث قـام الغرب بقمع كثـير مـن المسـلمين، والفتك بهـم حتَّى لا يصلـوا إلى مـا وصـلوا إليه من حضـارة، ومـن رأوا فيه النَّفع لهم احتكروه لأنفسـهـم بالتَّرغيـب والتَّرهيـب، ومن كان مخلصًـا لدينـه، يريد نفـع بلده منعوه مـن ذلك ولو باغتياله والقضاء عليه![21].

ثالثًا: وأمَّـا زعمهـم أنَّ الآيـات المكِّيَّة كانـت تتَّجـه للاختيـار! وأنَّ المدنيـة تتَّجه للجبر! فهذا من الكذب والافتراء، فالقرآن الكـريم يصـدِّق بعضـه بعضًـا، وعقيـدة الإيمان بالقضـاء والقدر عقيدة اتَّفق عليها الأنبياء والرُّسـل ـ عليهم الصَّـلاة والسَّلام ـ، ولم تختلـف من نبيٍّ إلى نبيٍّ، ولا من جيل إلى جيل، ولا من أمَّة إلى أمَّة، فكيف تختلف في رسـالة رسـول واحد جاء داعيًـا إلى ملَّة إبراهيم ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ، داعيًا إلى توحيـد ربِّ العالمين، جـاء داعيًا إلى ما كان عليه الرُّسـل من قبله، فديـن الأنبياء واحد وشرائعهم مختلفة في الأحكام الفرعيَّة.

ففي الآيـات المكيَّـة إثبـاتٌ أنَّ العبد له اختيار، وإثبات أنَّه يسـتمدُّ هدايته من الله وهـو مـا يصـفه أولئـك المستشـرقون بأنَّه عقيدة الجبر!

قال تعالى في سورة الإسراء وهي مكيَّة: ﴿مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ١٥﴾ [الإسراء]، وهـذه الآية صـريحة بـأنَّ العبد لـه اختيار وإرادة.

وقال تعـالى: ﴿وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُمۡ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِهِۦۖ وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا ٩٧﴾ [الإسراء]، فهذه الآية واضحة في أنَّ الهداية بيد الله، ومن أراد الله إغواءه فلن يجد له من دون الله ناصرًا.

وهذا المعنـى كثيرٌ في السُّـور المكِّيَّة كما قال تعالى في سـورة الزُّمَر وهي مكِّيَّة: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ٣٦ وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٖ ذِي ٱنتِقَامٖ ٣٧﴾، وقـال تعالى في سـورة التَّكوير وهي مكِّيَّـة: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٩﴾، وقـد جمـع الله في هـذه الآية بـين أنَّ العبد له اختيار ومشـيئة، وكذلك هو تحت مشيئة الله.

وهكذا كتابُ الله يصـدِّق بعضُه بعضًا، وليس كما زعم هؤلاء المستشرقون.

■ ■ ■

الخاتمة

تبيَّن ممَّا سبق عرضه أنَّ عقيدة المسلمين في القضـاء والقـدر: هـي عقيـدة جميـع الأنبياء والرُّسل ـ عليهم الصَّلاة والسَّلام ـ، وأنَّها مبنيَّة على الوسطيَّة والاعتدال، فليس فيها غلـوُّ الجبريَّة حيث إنَّهم أنكروا اختيار العبد، وزعموا أنَّه مجبور، وأنَّ الفاعل لفعله حقيقة هو الله ﷻ!

ولم يجفوا كما جفا القدريَّة؛ فزعموا أنَّ الله ليـس خالقًا لأفعال العبـاد، وزعموا أنَّ العبد هو الخالق لفعله دون الله ﷻ! فشابهوا المجوس في زعمهم بتعدُّد الخالِقين.

وتبيَّن مدى جهل وضـلال المستشرقين، وأنَّهـم ما فتئـوا يطعنون في دين الإسـلام، ويحاولون تشويهه بشتَّى الوسائل والطُّرق.

وتبـيَّن أنَّ الـرَّدَّ علـى المستشـرقين من أيسـر الأمـور؛ لأنَّهـم يبنـون طعونهم على الأكاذيب الواضـحة الَّتـي لا تنطلي إلاَّ على مـن كان بعيدًا عن دينه، معرضًـا عن تعلُّم عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة.

فأوصي المسلمين بتعلُّم العقيدة السَّلفيَّة، والحـذر من عقائـد أهل البدع والضَّـلال، وليعرفوا طرق أعداء الإسلام ووسائلهم في كيفية تشـويه دين الإسـلام؛ ليسهل عليهم الرَّدُّ على أعداء الإسلام، وليكونوا منذرين لما وراءهم.

■ ■ ■

أسـأل الله أن يوفِّـق جميع المسـلمين لِمَا فيه الخير والهدى والصَّـلاح، وأن يردَّ كيد الأعداء في نحورهم.

وصـلَّى الله وسـلَّم علـى نبيِّنـا محمَّد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

(20) انظر: كتاب «قالوا عن الإسلام»، تأليف: الدكتور عماد الدِّين خليل (ص375).

(21) انظر: كتاب «اغتيال العقول الحضارية الموحدة عبر التاريخ ـ هواية يهودية عريقة»، تأليف: د. رامي محمد سامي ديابي.



اختراق التصوف العلوم الشرعية

■ علم الحديث أنموذجا ■

الزواوي ملياني ■ وهران

لا يزال النَّاس منذ دهورٍ طويلة يحسـبون فيما يحسـبون أنَّ التَّصـوُّف ليس يعدو أن يكون سـلوكًا روحيًّا محضًـا، ليس من غرضٍ لسـالكه إلاَّ اجتثاث ما بالنَّفس من دواعي الآثام وغرائز الانفلات؛ بطرائق شـتَّى؛ جمعت بين ما كان مشروعًا ـ على قلَّته ـ وما كان ممنوعًا ـ على سعته ـ وكان قصدُهم من ذلك إصلاحَ الرُّوح والارتقاء بالنَّفس إلى معارجَ قدسيَّةٍ بعيدًا عن الإخلاد إلى الطِّينة البشريَّة.

لهذا فقد كان الصُّـوفيُّ ـ وهو لقب السَّـالك عند القوم ـ يشـخِّص هذا المعنى بمجموع صورٍ منها: العزلةُ وطلـبُ الخَلـوة وتجويـعُ النَّفس واختيارُ الظُّلمـة؛ إمعانًا في تخليص الرُّوح من مادَّة المادَّة ليصـفوَ له بصـرُ البصـيرة، لكنَّه كان تجرُّدًا عنيفًا لم ينزل به وحيٌ ولا جاء به نبيٌّ قطُّ؛ فأنَّى له أن يضـيء في دُلجة أو يرقى إلى علياء؟!

لكنَّ هذا المعنى للتَّصـوف ـ المقتصـر على السُّـلوك ـ صـار وهمًا محضًـا وخرج عن إطاره بعد أن تغلغل ـ أعني التَّصوُّفَ ـ بجذوره في علوم الشَّريعة لتلبُّس بعض الفقهاء والأصوليِّين به، وكان من ثمرات ذلك اعتبارُ الكشف والإلهام دليلاً شرعيًّا ـ هكذا بإطلاقٍ ـ عند بعضهم!

لأجل ذلك أردت بيان خطر هذا المنهج على علوم الإسلام، جاعلاً علمَ الحديثِ النَّبويِّ أنموذجًا لذلك، وفرعَ الكلام فيه حول **تصحيح الحديث الضَّعيف بالكشف والإلهام الصُّوفي**، راجيًا أن تتحرَّك الهممُ لبحث ذلك في باقي العلوم الشَّرعيَّة.

قال عبد الرَّزَّاق البيطار في: «حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر» (224/1):

«الشَّـيخ حسـن بن عمر بن معروف بن عبد الله بن مصـطفى الشَّـطِّي الدِّمشـقي الحنبلـي البغدادي الأصل...

وقد صحَّ عند بعض أهل الكشف حديث إحياء أبَوَي النَّبيِّ ﷺ ولذلك قال بعضهم:

أيقـنـتُ أنَّ أبـا الـنَّبيِّ وأمَّـه   أحياهما الرَّبُّ الكريمُ الباري
حتَّى له شهدَا بفضل رسالـة   صدق، فتلك كرامة المختار

هذا الحديث ومن يقول بضعفه

فهو الضَّعيف عن الحقيقة عاري

وتوفي رحمه الله سنة ألف ومائتين وأربع وسبعين من الهجرة، ودفن في مقبرة قاسيون في سفح الجبل، وقبره ظاهر معروف رحمه الله تعالى.

وجاء في كتاب «بريقة محمودية في شرح طريقة محمَّدية وشريعة نبويَّة» (2/459):

«...(أَوْ يُصَلِّيَ رَكْعَةً كَذَا أَوْ يُسَبِّحَ أَوْ يُهَلِّلَ) نَحْوَ سَبْعِينَ أَلْفًا كَمَا هُوَ الْمُتَعَارَفُ؛ بِنَاءً عَلَى مَا نُقِلَ عَنْ مُحْيِي الدِّينِ بن الْعَرَبِيِّ، وَالَّذِي أُوصِيك بِهِ عَلَى أَنْ تُحَافِظَهُ عَلَى أَنْ تَشْتَرِيَ نَفْسَك مِن اللَّه بِعِتْقِ رَقَبَتِك مِن النَّارِ بِأَنْ تَقُولَ لَا إلَهَ إلَّا اللَّه سَبْعِينَ أَلْفَ مَرَّةٍ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يُعْتِقُ بِهَا رَقَبَتَك مِنَ النَّارِ أَوْ رَقَبَةَ مَنْ يَقُولُهَا مِنَ النَّاسِ.

وَرَدَ فِي ذَلِكَ خَبَرٌ نَبَوِيٌّ، وَلَقَدْ أَخْبَرَنِي أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ عَلِيٍّ الْقَسْطَلَّانِيُّ أَنَّ الشَّيْخَ أَبَا الرَّبِيعِ الْمَالِقِيَّ كَانَ عَلَى مَائِدَةِ طَعَامٍ، وَكَانَ قَدْ ذَكَرَ هَذَا الذِّكْرَ، وَكَانَ عَلَى الْمَائِدَةِ شَابٌّ صَغِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكَشْفِ، فَعِنْدَمَا مَدَّ يَدَهُ إلَى الطَّعَامِ بَكَى وَقَالَ: لِأَنِّي رَأَيْت أُمِّي فِي جَهَنَّمَ! قَالَ أَبُو الرَّبِيعِ: فَوَهَبْت فِي نَفْسِي هَذَا التَّوْحِيدَ لِإِعْتَاقِ أُمِّهِ، فَقَالَ الصَّبِيُّ: الْحَمْدُ لِلَّهِ قَدْ خَرَجَتْ مِنَ النَّارِ مَسْرُورَةً!! فَأَكَلَ فَقَالَ أَبُو الرَّبِيعِ: **فَصَحَّ عِنْدِي هَذَا الْخَبَرُ النَّبَوِيُّ وَكَشْفُ هَذَا الصَّبِيِّ فَمِثْلُ هَذَا الْخَبَرِ وَإِنْ كَانَ ضَعِيفًا لَكِنْ يَجُوزُ الْعَمَلُ بِهِ فِي فَضَائِلِ الْأَعْمَالِ** سِيَّمَا فِي تَأْيِيدِ نَصٍّ وَلَمْ يُخَالِفْ الْقِيَاسَ، وَلِهَذَا وَقَعَ فِي عَمَلِ بَعْضٍ وَوَصَايَاهُ كَمُلَّا خُسْرو وَابْنِ الْكَمَالِ، وَوَقَعَ فِي «مِشْكَاةِ الْأَنْوَارِ» وَفِي بَعْضِ مُصَنَّفَاتِ الشَّيْخِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْبِسْطَامِيِّ...».

قلت: هذا لأنهم يقسمون الدِّين إلى شريعة وحقيقة، وأنَّ النَّاس تبع لهذا التَّقسيم، إذ أهل الشَّريعة - عندهم - وقفوا عند رسومه، بينما وصل أهل الحقيقة إلى منتهى باطنه، وغاصوا في مدارك فهومه، بالقدر الَّذي لم تستوعبه عقول أهل الشَّريعة، ولا فهمت مغزاه، وفي هذا من التَّجهيل والصَّلف ما ليس بخاف، ولهذا قال القرطبي رحمه الله ناقلًا عن شيخه أبي العبَّاس قوله - وهو ينعى رداءة مذهبهم -:

فَإِنَّ إلهامَ النَّبيِّ عليه السلام حجَّةٌ قاطعةٌ لا يَسَعُ مُخَالَفَتُهُ بوجه، وإلهامُ غيْرِه ليس بحُجَّة

«ذهب قوم من **زنادقة الباطنيَّة** إلى سلوك طريق لا تلزم منه هذه الأحكام الشَّرعيَّة فقالوا: هذه الأحكام الشَّرعيَّة العامَّة إنَّما يحكم بها على الأغبياء والعامَّة، وأمَّا الأولياء وأهل الخصوص فلا يحتاجون إلى تلك النُّصوص، بل إنَّما يُراد منهم **ما يقع في قلوبهم**، ويحكم عليهم بما يغلب عليهم **من خواطرهم**»(1).

هكذا قال رحمه الله، والهدى بيد الله وحده، غير أنَّ ما يجب التَّنبيه إليه هنا رفعًا للَّبس؛ أنَّ أهل العلم حين تكلَّموا عن مصادر التَّلقِّي، ودلائل الدِّين، وكذا حين تكلَّموا عن شروط الاجتهاد وأهليَّة المجتهد، لم يسمُّوا الكشف، فيما ذكروا من الشُّروط والأدوات، ولو كان الكشف يحمل حقيقة دلائليَّة بهذه الأهميَّة، ما كانوا ليغفلوا عنه في بابه، وكتب الأصول منثورة ومباحث الاجتهاد فيها مشهورة، ولهذا قال في «كشف الأسرار» (6/59): «فإنَّ **إلهام النَّبيِّ** عليه السلام حجَّةٌ قاطعةٌ لا يَسَعُ مُخَالَفَتُهُ بوجه، **وَإِلْهَامُ غَيْرِهِ لَيس بِحُجَّة**».

وقال الجصَّاص في «الفصول في الأصول» (3/382): «ومن النَّاس مَن يزعم: أَنَّ العلومَ إِلْهَامٌ من الله تَعَالَى، وَأَنَّ النَّظرَ وَالاستدلالَ لا يُوصلان إلى علْم يَردُ؛ لِنَصِّ الآيِ الَّتي ذكرناها في الأمر بالاستدلال وَالحَثِّ عَلَى النَّظر وَالفكر، وَلا يمكن القَائِلَ به الانفصالُ ممَّن يَقُولُ: قَدْ أُلهمت العلمَ بإبطَالِ الإلهام... وإلى ذلك يؤولُ عاقبةُ مذاهبِ المُبطلين، وَاللَّه أعلم بالصَّواب».

وقال الشَّنقيطي رحمه الله في «الأضواء» (3/387): «إنَّ المقرَّر في الأصول أنَّ الإلهام من الأولياء **لا يجوز الاستدلال به على شيء**».

وقال البرزنجي في «تعارض الأدلَّة» (1/149): «والحقّ أنَّ **الإلهام ليس بحجَّة ملزمة**؛ لأنَّ مداره حجِّيَّة إفتاء القلب، وصحَّة التَّمسُّك بمثل ذلك على وجود العصمة، وهي غير متحقِّقة لأحد بعد وفاة النَّبيِّ محمَّد ﷺ».

إنَّ المقرَّر في الأصول أنَّ الإلهام من الأولياء لا يجوز الاستدلال به على شيء

فما على من ينكر هذا إلَّا المراجعة.

نعم قد ذكرت بعض الكتب كلامًا حول الإلهام الصَّادر من قلب معمور **بالتَّقوى**، خليّ من **البدعة والهوى**، قد شرب من كأس **الوحي** حتَّى ارتوى، بما يجعل للتَّقوى أثرًا كبيرًا في استجلاب التَّوفيق، إذا بُنيت على هذا الأساس الوثيق، بل هو - والله! - أقصد التَّوفيق - منوط بها مناط المُسَبَّب بسببه، والمعلول بعلَّته، وما خذل الله أحدًا، في علم أو عمل إلَّا لأنَّه تخلَّى عن لبوسها فتعرَّى من أسباب الوقاية، وإنَّما الشَّأن هنا؛ النَّظر في الفرق بين صدق التَّقوى وغرور الهوى، ممَّا

(1) «تفسير القرطبي» (11/40).

يُظَنُّ صلاحًا وفلاحًا، وهو عند الله قِباحٌ ـ تنبعث من القوم كفاحًا ـ وما ينفع شبحًا في صورة إنسانٍ أغواهُ الشيطان، فتكلَّم بالهذيان، وهو يظنُّه مددًا من الرَّحمن؟!!!

ومن هنا يُعلم الرَّدُّ على من ينبري معترضًا ليقول في صورة المنتصب للدِّفاع عن صحَّة ما عليه مذهب القوم: فما تقول في كلمة الرَّبيع بن خثيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّ من الحديث حديثًا له ضوءٌ كضوءِ النَّهارِ نَعرِفُه، وَإنَّ من الحديثِ حديثًا لَهُ ظُلمةٌ كظلمةِ اللَّيلِ نُنكرُه»[2]، وقصَّة الرَّجل الَّذي قال: علمت أنَّ هذا العلم إلهام؟ وفيها أنَّ رجلاً جَاءَ إِلَى أبي زُرعةَ فقال: مَا الحجَّة في تَعليلكُم الحديث؟ فقال: الحجَّةُ في ذلك أن تَسألني عَن حديث لَهُ علَّةٌ فأذكر علَّتَهُ، ثُمَّ تقصد محمَّد بنَ مُسلم بنِ وَارَةَ فتسأَلَهُ عَنهُ فَيُعَلِّلهُ، ثُمَّ تَقصد أَبَا حَاتمٍ الرَّازيَّ فَيُعَلِّلُه، ثُمَّ تَنظُر فَإن وَجَدت بيننا اختلافًا في علَّته؛ فَاعلَم أَنَّ كُلاًّ منَّا تَكَلَّمَ عَلَى مُرَاده، وَإِن وَجَدت الكلمةَ مُتَّفقَةً فاعلَمْ حَقيقةَ هَذَا العلم. ففعلَ الرَّجُلُ فَاتَّفَقَت كَلِمتُهم، فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّ هَذَا العلمَ إلْهَامٌ[3].

الجواب أن يُقال:

إنَّ لأهل الحديث قواعدَ منضبطةً، وقوانين منتظمةً في غربلة الأخبار وتصفية الآثار، أخذها تابعهم عن سابقهم وآخرهم عن أوَّلهم، أخذًا بحجَّة وضبطًا عن بيان، ومن يتصوَّر من النَّاس أنَّ قواعد القوم وقوانينَهم، جاءت هكذا من فراغ، بعيدًا عن الحجج العلميَّة والبيِّنات الشَّرعيَّة، فهو جاهلٌ كلَّ الجهل بعلوم القوم وفهومهم، وليس بين هذا وبين إدراك ذلك إلاَّ أن يعمد إلى تراجمهم، لاسيما رؤوسهم، وخواصّ تلامذتهم، والمقرَّبين منهم لينظر عن قرب سِيَرَ القوم، ويرى عن كثب حالهم، فإنَّه لن يجد إلاَّ حافظًا متقنًا؛ شغله حفظ الحديث عن أهله وماله، بل عن نفسه ومأكله ومشربه، إذا ظفر بالحديث وصحَّ عنده، فرح به، وكان عنده خيرًا من الدُّنيا وما فيها، مع نصيب وافرٍ وحظٍّ زاخر من العبادة والتَّألُّه، ليجمعوا بين العلم والعمل تأسِّيًا بمن تقدَّمهم من الأخيار، وفرارًا من زَغَل العلم ودَخَنه، وعليه؛ فما أُتي من أُتي ممَّن جهل على القوم فذمَّهم، وتجاهل عليهم فسبَّهم؛ إلاَّ من جهله بكلِّ ما مرَّ بيانُه، وليتَ شعري ما ذنبُهم إذْ كان من يعالجون بليدًا لا يفهم أو متحجِّرًا لا يعي، بل غايةُ مثل هذا أن يذعن لما أَفْتَوْه به إذا سألهم، وأن يسلِّم لهم لما قالوه ، ولو أراد الله به خيرًا لفقَّهُهُ ممَّا فقَّه منه من يعيبُهم، وإنَّ مثلَ هذا لو قيل له: إنَّ الورقَ الَّذي معك؛ به زيفٌ، لهرْولَ إلى الصَّيرفي عساه يطرد عنه شيطانَ الهوس والدَّهشة، فإذا طمْأنه وبيَّن له خلوصَه من ذلك، هبَّت عليه نسائمُ النَّاجي منَ الكرْب، ولم يتجرَّأ أن يسأل الصَّيرفي عن وجه ذلك، لدرايته ـ هو ـ بجهله بهذا النَّقد والفحص، وأنَّ الصَّيْرفي مُؤتمنٌ لقوَّة علمه بهذا الشَّأن، وتضلُّعه فيه، بما يجعل سؤال الجاهل بالأمر عن السِّرِّ عَيايَةً وثِقلاً، ورحمةُ الله على أهل الحديث.

ذَكَرَ البُخَارِيُّ عَنْ ابنِ المَدِينيِّ عَن ابن مَهْدِيٍّ وَسَأَلَهُ رَجُلٌ عَنْ ذَلكَ فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: أَرَأَيْتَ لَوْ أَتَيْتَ النَّاقِدَ فَأَرَيْتَه دَرَاهِمَكَ، فَقَالَ: هَذَا جَيِّدٌ وَهَذَا سَتُّوق، وَهَذَا نُبَهْرَج، أَكُنْتَ تَسْأَلُهُ عَمَّنْ ذَلكَ، أَوْ كُنْتَ تُسَلِّمُ الأَمْرَ لَهُ؟ قَالَ: لا، بَلْ كُنْتُ أُسَلِّمُ الأَمْرَ إِلَيْهِ قَالَ: **فَهَذَا كَذَلِكَ لِطُولِ المُجَالَسَةِ وَالمُنَاظَرَةِ وَالخِبْرَةِ**»[4].

وقال شريح: «إنَّ للأَثَرِ جَهَابِذَةً كَجَهَابِذَةِ الوَرِقِ»[5].

هذا كلُّه يفسِّر لك كلمة ابنِ مَهْدِيٍّ العظيمة على وجازتها: «عِلْمُنَا بِصِلَةِ الحَدِيثِ **كِهَانَةٌ عِنْدَ الجَاهِلِ**»، لتعلم أنَّ القضيَّة إنَّما انقلبت كهانة عند الجاهل لفرط جهله، وأمَّا عند القوم فسببها طول المجالسة والمناظرة والخبرة.

وذلك أنَّ المجالسة تجلب **المذاكرة**، وهذه طريقٌ **للمناظرة** والمباحثة، وهذه بدورها مثمرة **للخبرة** والمُكْنَة؛ فالقضيَّة قضيَّة علم ودليل، وبحث وحجَّة، ليس إلاَّ، وقطب الرَّحى عند القوم سبر طرق الحديث وأسانيده واعتبار ذلك بالنَّظر الصَّحيح والفهم الثَّاقب الَّذي توارثوه من خلال طول الممارسة والدُّربة حتَّى صار ملكةً، وكلماتُهم في ذلك صريحةٌ فيه وقاضيةٌ به؛ قال أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذَا لَمْ **يُجْمَعْ طُرُقُ** الحَدِيثِ لَمْ يُفْهَمْ، وَالحَدِيثُ يُفَسِّرُ بَعْضُهُ بَعْضًا»، وقال ابن المديني: «الباب إذا لم **تجمع طرقه** لم تتبيَّن علَّته»، وقال ابن الجوزي: «وَمِنْ عُلُومِ الحَدِيثِ مَعْرِفَةُ عِلَلِه، وَذَلِكَ **بِجَمْعِ طُرُقِه**»، فإذا عُلم هذا فَلْيُسَمِّها الجاهل بعد ذلك كهانة أو بالَّذي يشاء!

نعم، قد ينصرف بعض أهل العلم أحيانًا عن ذكر البيان لكن لغاية ما هي أبعد أن تكون لفقر في الحجَّة، إنَّما قد

(2) «الآداب الشَّرعيَّة» لابن مفلح (2/211).
(3) رَوَاهُ الحَاكِمُ في «معرفة علوم الحديث» (ص74 ـ 75).
(4) أخرجه ابن عدي في «الكامل» (1/109).
(5) «الآداب الشَّرعيَّة» لابن مفلح (2/212).

يوجد فيهم من قد لا يحسنه؛ فيحسبه من يراه منه، جهلاً وعيًّا، وما درى هذا أنَّ ما كلُّ صاحبِ حقٍّ يقدر على ترتيب الحجاج، وإن كان أدرى النَّاس بالفجاج، وهو لو أمكنه البيان فنطق لأفلق، «وأفلَقَ فُلانٌ...: إذا جاءَ بعجَبٍ ومنه أفْلَقَ الشَّاعِرُ...: إذا أتى بالعَجيبِ في شِعْرِه»[6]، بل لقد وُجِد من النَّاس من يكون فصيحًا، ثمَّ إذا أراد البيان عيي، وهو من يُسمُّونه: المُرْتَكَّ: وهو مَن تَراهُ بَليغًا، وإذا خاصَمَ عَيِيَ[7]، وبه تعلم الجواب عمَّا قد يستشكله البعض من سكوت بعض أئمَّة الحديث عن بيان الحجَّة في التَّعليل، بل قد يسكت الرَّجل عن الجواب وهو أقدر عليه، ما منعه منه إلاَّ سعة قدره وصبره، وضَعَة مخاطبه ودناءته، وأن لا ينجرَّ معه إلى سفالته، وما حمل هذا من الذَّنب، إلاَّ ما حملت النَّاقة الرَّزينة سمِّيت بالبلهاء (من البله) تشبيهًا لها بالحمقاء؛ لأنَّها صارت لا تتحاش من شيءٍ مكانة ورزانةً؛ بينما الأخرى لا تتحاش من جهل وغفلة؟

جاء في «القاموس» (3/376): «والبَلْهاءُ: النَّاقَةُ لا تَنْحاشُ من شيءٍ مَكانَةً ورَزانَةً، كَأَنَّها حَمْقاءُ».

قلت: ومن هذا الباب الانصرافُ عن جواب الجاهل ـ إلاَّ على قدْرِ عقله ـ وعدمُ الخوض معه في وجوه الحجج والدِّلالات؛ إذ لا طاقةَ له بذلك بل وأنَّى له؟!

فالقصدُ ـ إذن ـ أنَّ سكوتَ من سكت ليس ناشئًا عن عدم وجود الحجَّة العلميَّة في صدورهم؛ أو أنَّ حاجبًا من حُجُب الغيب حبسها عنهم! ولو كان الأمر كذلك لصار تخمينًا محضًا وتخرُّصًا مرفوضًا، فئةُ المحدِّثين أبرأ النَّاس منه في ماضٍ وفي حاضر.

■ **ما هي حقيقة الإلهام؟**

قال الشَّنقيطي في «الأضواء» (3/388): «والإلهام في الاصطلاح: إيقاع شيء في القلب يثلج له الصَّدر من غير استدلال بوحي ولا نظر في حجَّة عقليَّة، يختصُّ الله به من يشاء من خلقه».

قلت: اختصاص الله تعالى لبعض الخلق به من غير الأنبياء ـ عليهم السلام ـ، دليل على الاصطفاء والاختيار، ومن شأنه وهو كذلك أن يقع على الخلاصة النَّقيَّة والزُّبدة الصَّفيَّة، من المختار منه، على أنَّ هاهنا أمورًا ثلاثةً على المرء أن يجعلها منه على ذُكْرٍ: أحدها: أنَّ البخاريَّ رحمه الله فسَّر الإلهام بإجراء الصَّواب على لسان الملهَم؛ قال النَّووي [شرح مسلم رقم (4411)]: «وقال البخاري: يجري الصَّواب على ألسنتهم».

ثانيها: أنَّ الملهَم إنْ صحَّ له شيء من ذلك فيعملُ به في خاصَّة نفسه من دون أن يلزم به غيرَه فضلاً عن أن يجعله شرعًا ربَّانيًّا لعموم أهل الملَّة.

قال ابن تيمية: «فإلهام مثل هذا دليل في حقِّه...»، ثمَّ حتَّى لا يُقابَل بإلهام من غيره أو حتَّى من عند نفسه ينقض إلهامَه الأوَّل، ولك أن تتصوَّر كم من الفساد في هذا، وقد سبق قول صاحب الفصول: «وَلا يمكن القَائلَ به الانفصالُ ممَّنْ يَقُولُ: قَدْ أُلهِمت العلمَ بإبطَال الإلهام... وإلى ذلك يؤولُ عاقبةُ مذاهبِ المُبطلِين وَاللهُ أعلم بالصَّواب».

ثالثها: أن يكون من يدَّعي إلهامًا ما على قدرٍ من الصَّلاح والتُّقى على الطَّريقة النَّبويَّة إذ لا يُتصوَّر أن يكون لله وليٌّ على غير طريقة رسول الله ﷺ، أمَّا أن يأتيَ دجَّالٌ يدَّعي الوَلاية بالغناء!! والاعتكاف على القِصاع!! وأخٌ آخرُ له، مفطومٌ من نفس الرِّضاع!! قد غرَّه إبليس بما يجد في رأسه من الوساوس والصُّداع!! وجعل يُغشى عليه تارة ويستفيق أخرى، وهو كلَّما استفاق جعل يقول: تعالوا تلمَّسوا من شيخكم الإلهام والانتفاع!!! فهاهنا يُقال: تالله إنَّ الَّذي يقول بوَلاية هؤلاء مُعْظِمٌ سوء الظَّنِّ بمولاه، ولا هو ـ والله! ـ قد قدره حقَّ قدره، إذ إنَّه باعتقاده هذا، عطَّل ناموس الحكمة في خلقه وأمره، فجعل الفقيه كالمُسْتَفيه (الأكول)[8]. والتَّقيَّ كالسَّفيه، والله فرَّقَ، فرتَّبَ لكلٍّ منهم شُغلاً لفيه.

قال الشَّاطبي رحمه الله في «الاعتصام» (2/506): «والخامس (من مذاهب أهل الأهواء) رأيُ نابتة مُتأخِّرة الزَّمان ممَّن يدَّعي التَّخلق بخلق أهل التَّصوُّف المتقدِّمين... يعمدون إلى ما نقل عنهم في الكتب من الأحوال الجارية عليهم أو الأقوال الصَّادرة عنهم، فيتَّخذونها دينًا وشريعةً لأهل الطَّريقة، وإن كانت مخالفة للنُّصوص الشَّرعيَّة من الكتاب والسُّنَّة، أو مخالفة لما جاء عن السَّلف الصَّالح، لا يلتفتون معها إلى فتيا مفتٍ، ولا نظر عالم، بل يقولون: إنَّ صاحب هذا الكلام ثبتت وَلاَيته، فكلُّ ما يفعله أو يقوله حقٌّ، وإن كان مخالفًا، فهو أيضًا ممَّن يُقتدى به، والفقهُ للعموم، وهذه طريقة الخصوص.

أنَّ الملهَم إنْ صحَّ له شيء من ذلك فيعملُ به في خاصَّة نفسه من دون أن يلزم به غيرَه فضلاً عن أن يجعله شرعًا ربَّانيًّا لعموم أهل الملَّة

(6) «تاج العروس» (1/6553).
(7) «القاموس المحيط» (3/28).
(8) «القاموس» (3/328).

فتراهم يحسنون الظَّنَّ بتلك الأقوال والأفعال، ولا يحسنون الظَّنَّ بشريعة محمَّد ﷺ، وهو عين اتِّباع الرِّجال وترك الحقّ».

ومن لطيف العبارات العلميَّة في هذا الصَّدد، ما وجدته للكَنويِّ رحمه الله في «الآثار المرفوعة» (76) وهو يتكلَّم عن صلاة الرَّغائب حيث قال: «ذِكرُ ليلة الرَّغائب في «بهجة الأسرار» وغيره لايثبت إلاَّ فضلها، وهو ليس بمستنكر، وإنَّما المنكر هو أداء صلاة الرَّغائب فيها أخذًا بالحديث الوارد فيها، ولا اعتبار لوقوع حديثها في «الغنية» وغيرها من كتب الصُّوفيَّة، **فإنَّ العبرة في باب ثبوت الحديث هو نقد الرِّجال لا كشف الرِّجال**، ومبالغة المحدِّثين في هذا الباب واقع في موضعها...».

قلت: ولشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كلماتٌ في «مجموع الفتاوى» له حول هذا الموضوع فيها فوائدُ ودقائقُ؛ بيَّن فيها معنى الإلهام، ومن ينفع أن يكون إلهامُه حجَّةً ومَنْ لا؟ ومتى؟ لكنْ على من يقرؤها أن يفعل ذلك بنظرٍ من حديد وإمعان شديد؛ فإنَّ فرقَ ما بين الَّذي ذكره رحمه الله وبين مذهب أهل التَّصوُّف أدقُّ ممَّا بين جنْبَتي شعرة!

■ **نصيحةٌ من مشرقيٍّ متقدِّم ومغربيٍّ متأخِّر جمع بينهما مشرب الوحي:**

قال شيخ الإسلام رحمه الله **في** «الاقتضاء» (ص282):

«...وكذلك العلماء إذا أقاموا كتاب الله وفقهوا ما فيه من البيِّنات الَّتي هي حجج الله، وما فيه من الهدى، الَّذي هو العلم النَّافع والعمل الصَّالح، وأقاموا حكمة الله الَّتي بعث بها رسوله ﷺ وهي سنَّته؛ لوجدوا فيها من أنواع العلوم النَّافعة ما يحيط بعلم عامَّة النَّاس، ولميَّزوا حينئذ بين المحقِّ والمبطل من جميع الخلق، بوصف الشَّهادة الَّتي جعلها الله لهذه الأمَّة... وكذلك العُبَّاد: إذا تعبَّدوا بما شرع الله من الأقوال والأعمال ظاهرًا وباطنًا، وذاقوا طعم الكلم الطَّيِّب والعمل الصَّالح الَّذي بعث الله به رسوله ﷺ وجدوا في ذلك من الأحوال الزَّكيَّة والمقامات العليَّة والنَّتائج العظيمة ما يغنيهم عمَّا حدث من نوعه: كالتَّغبير ونحوه من السَّماعات المبتدعة، الصَّارفة عن سماع القرآن، وأنواع من الأذكار والأوراد، لفَّقها بعض النَّاس، أو في قدره: كزيادات من التَّعبُّدات، أحدثها من أحدثها **لنقص تمسُّكه بالمشروع منها**، وإن كان كثير من العباد والعلماء بل والأمراء قد يكون معذورًا فيما أحدثه، لنوع اجتهاد. فالغرض أن يعرف **الدَّليل الصَّحيح**، وإن كان التَّارك له قد يكون معذورًا لاجتهاده...».

أنَّ دين الله تعالى من عقائد الإيمان، وقواعد الإسلام، وطرائق الإحسان، إنَّما هو في الكتاب والسُّنَّة الثَّابتة الصَّحيحة، وعمل السَّلف الصَّالح

قال الشَّيخ ابن باديس رحمه الله **في «الآثار»** (163/3):

«اعلموا، جعلكم الله من وعاة العلم، ورزقكم حلاوة الإدراك والفهم، وجمَّلكم بعزَّة الاتِّباع، وجنَّبكم ذلَّة الابتداع، أنَّ الواجب على كلِّ مسلم في كلِّ مكان وزمان، أن يعتقد عقدًا يتشرَّب به قلبه، وتسكن له نفسه، وينشرح له صدره، ويلهج به لسانه، وتنبني عليه أعماله، أنَّ دين الله تعالى من عقائد الإيمان، وقواعد الإسلام، وطرائق الإحسان، إنَّما هو في الكتاب **والسُّنَّة الثَّابتة الصَّحيحة**، وعمل السَّلف الصَّالح؛ من الصَّحابة والتَّابعين وأتباع التَّابعين، وأنَّ كلَّ ما خرج عن هذه الأصول ولم يحظَ لديها بالقبول، قولاً كان أو عملاً، أو عقدًا أو احتمالاً، فإنَّه باطل من أصله، مردود على صاحبه، كائنًا من كان، في كلِّ زمان ومكان، فاحفظوها واعملوا بها، تهتدوا وترشدوا إن شاء الله تعالى، فقد تظافرت عليها الأدلَّة، من الكتاب والسُّنَّة، وأقوال أساطين الملَّة، من علماء الأمصار وأئمَّة الأقطار وشيوخ الزُّهد الأخيار، وهي لعمر الحقّ لا يقبلها إلاَّ أهل الدِّين والإيمان، ولا يردُّها إلاَّ أهل الزَّيغ والبهتان».

• • •

هذه خلاصة الكلمة، وهي كما ترى معتصرة جدًّا، لكن عسى الله أن يبعث يقظًا من أهل الهمم العالية يتَّخذها نواةً لبحث أوسع وأوفى، فإنَّ ثمَّة مباحث مهمَّة وزيادات جمَّة، لو يتتبَّعها طالبٌ نشطٌ لسوف يجتمع له بحثٌ كبيرٌ، والرَّجاء في الله سبحانه عظيم أن يسدِّدَ الخطى ويلهم الرُّشد، ويهدي إلى سواء السَّبيل.



الخشوع

عبد المالك رمضاني
المدينة النبوية

لا يزال الإنسان في جهادٍ مع عدوِّه الشَّيطان، فهو لا يذره لمحةَ بصرٍ من وساوسه حتَّى يُفسد ما بينه وبين ربِّه.

ومن طرقه في الإفساد: اجتهاده في صرف العبد عن عبادة ربِّه.

وأوَّل أمر يفكِّر في إفساده: هو روح الشَّيء وقطب رحاه وأساسه الَّذي يقوم عليه.

وأعظم شيء يزعجه ويبلغ غيظُه فيه مداه هو التَّوحيد؛ ولذلك يهجم على قلب المرء بالشُّبهات الشِّركيَّة ويشحنه بالفتن الكفريَّة ليُخرجه من أهل التَّوحيد جملةً واحدة؛ فيستريح منه مرَّة واحدة.

فإذا عصاه ابن آدم وكان له عند الله جاهٌ حفظه به، فإذا عجز لم يتركه؛ بل قفز إلى عبادة العابد ليفسدها؛ لأنَّه أُمر بذلك فعصى وأُمر صالحُ ابن آدم به فأطاع.

قال ابن القيِّم في «الوابل الصَّيِّب» (ص34):

«والعبد إذا قام في الصَّلاة غار الشَّيطان منه، فإنَّه قد قام في أعظم مقام وأقربه وأغيظه للشَّيطان وأشدِّه عليه، فهو يحرص ويجتهد أن لا يقيمه فيه، بل لا يزال به يَعِدُهُ ويمنِّيه وينسيه ويجلب عليه بخيله ورجله حتَّى يهوِّن عليه شأن الصَّلاة؛ فيتهاون بها فيتركها.

فإن عجز عن ذلك منه وعصاه العبد وقام في ذلك المقام؛ أقبل عدوُّ الله تعالى حتَّى يخطر بينه وبين نفسه ويحول بينه وبين قلبه؛ فيُذكِّره في الصَّلاة ما لم يذكر قبل دخوله فيها حتَّى ربَّما كان قد نسي الشَّيء والحاجة وأَيِسَ منها فيذكِّره إيَّاها في الصَّلاة؛ ليشغل قلبه بها ويأخذه عن الله عزَّ وجلَّ فيقوم فيها بلا قلب، فلا ينال من إقبال الله تعالى وكرامته وقربه ما يناله المقبل على ربِّه عزَّ وجلَّ الحاضر بقلبه في صلاته؛ فينصرف من صلاته مثل ما دخل فيها بخطاياه وذنوبه وأثقاله، لم تخف عنه بالصَّلاة، فإنَّ الصَّلاة إنَّما تكفِّر سيِّئات من أدَّى حقَّها وأكمل خشوعها ووقف بين يدي الله تعالى بقلبه وقالبه، فهذا إذا انصرف منها وجد خفَّة من نفسه وأحسَّ بأثقال قد وضعت عنه، فوجد نشاطًا وراحةً وروحًا حتَّى يتمنَّى أنَّه لم يكن خرج منها؛ لأنَّها قرَّة عينيه ونعيم روحه وجنَّة قلبه ومستراحه في الدُّنيا، فلا يزال كأنَّه في سجن وضيق حتَّى يدخل فيها فيستريح بها لا منها، فالمحبُّون يقولون: نصلِّي فنستريح بصلاتنا كما قال إمامهم وقدوتهم ونبيُّهم ﷺ: «**يَا بِلاَلُ! أَرِحْنَا بِالصَّلاَةِ**»، ولم يقل: أرحنا منها، وقال ﷺ: «**جُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاَةِ**»، فمن جُعلت قرَّة عينه في الصَّلاة؛ كيف تقرُّ عينه ﷺ بدونها؟! وكيف يطيق الصَّبر عنها؟!

فصلاة هذا الحاضر بقلبه الَّذي قرَّة عينه في الصَّلاة هي الَّتي تصعد ولها نور وبرهان، حتَّى يستقبل بها الرَّحمن عزَّ وجلَّ، فتقول: حفظك الله تعالى كما حفظتني.

وأمَّا صلاة المفرِّط المضيِّع لحقوقها وحدودها وخشوعها؛ فإنَّها تلفُّ كما يلفُّ الثَّوب الخلق، ويضرب بها وجه صاحبها، وتقول: ضيَّعك الله كما ضيَّعتني».

وهذا هو الخشوع الَّذي يسعى الشَّيطان لحرمان صلاة العابد منه؛ ليقدِّم لربِّه عبادةً لا روح فيها.

وقال - أيضًا - في «بدائع الفوائد» (423/2):

«قبيح بالعبد أن يقول بلسانه: الله أكبر، وقد امتلأ قلبه بغير الله، فهو قِبْلَةُ قلبه في الصَّلاة».

وقد حصلَ في الأمَّة من الأحوالِ المُخالفة للخُشوع المَشروع عَجائبُ! فكم ترى من مصلٍّ يُراقبُ ساعتَه في صلاته مُستكثرًا على ربِّه طولَ وُقوفه بين يدَيه، ولعلَّه لم يَمكث فيها إلاَّ دَقائقَ مَعدودةً! وكم ترى من لا يَحلُو له فَرقعةُ أصابعه أو تَنقيةُ أظافيره إلاَّ إذا دخلَ في الصَّلاة! وكم ترى من مصلٍّ محدق ببصره نحوَ شيء كأنَّه خاشعٌ! والحقيقةُ أنَّه قد سرحَ به التَّفكيرُ في حاجاته حتَّى حدَّ بصرَه نحوَ شيء يَكادُ يَخرقُه بعَينه، ويُخيَّل إليكَ أنَّه يَنظرُ إليه، وما هو بناظر إليه.

وصدقَ رَسولُ الله ﷺ الَّذي أخبرَ: أنَّ أوَّلَ علم يُرفع في هذه الأمَّة الخُشوع؛ فقد قالَ عوفُ بن مالك: «بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ فَنَظَرَ فِي السَّمَاءِ، ثُمَّ قَالَ: هَذَا أَوَانُ العِلْمِ أَنْ يُرْفَعَ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُ زِيَادُ ابنُ لَبِيدٍ: أَيُرْفَعُ العِلْمُ يَا رَسُولَ اللهِ! وَفِينَا كِتَابُ اللهِ، وَقَدْ عَلَّمْنَاهُ أَبْنَاءَنَا وَنِسَاءَنَا؟! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: إِنْ كُنْتُ لأَظُنُّكَ مِنْ أَفْقَهِ أَهْلِ المَدِينَةِ، ثُمَّ ذَكَرَ ضَلاَلَةَ أَهْلِ الكِتَابَيْنِ، وَعِنْدَهُمَا مَا عِنْدَهُمَا مِنْ كِتَابِ اللهِ ﷻ، فَلَقِيَ جُبَيْرُ بْنُ نُفَيْرٍ شَدَّادَ بنَ أَوْسٍ بِالمُصَلَّى؛ فَحَدَّثَهُ هَذَا الحَدِيثَ عَنْ عَوْفِ بنِ مَالِكٍ فَقَالَ: صَدَقَ عَوْفٌ، ثُمَّ قَالَ: وَهَلْ تَدْرِي مَا رَفْعُ العِلْمِ؟ قَالَ: قُلْتُ: لا أَدْرِي! قَالَ: ذَهَابُ أَوْعِيَتِه، قَالَ: وَهَلْ تَدْرِي أَيُّ العِلْمِ أَوَّلُ أَنْ يُرْفَعَ؟ قَالَ: قُلْتُ: لاَ أَدْرِي! قَالَ: الخُشُوعُ حَتَّى لا تَكَادُ تَرَى خَاشِعًا»(1).

قبيح بالعبد أن يقول بلسانه: الله أكبر، وقد امتلأ قلبه بغير الله، فهو قِبْلَةُ قلبه في الصَّلاة

والخشوع لغةً: السُّكون والتَّذلُّل، قاله صاحب «النِّهاية»، ومنه قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا﴾ [الحشر: 21]، وقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ [فصلت: 39].

وقال ابن تيمية كما في «المجموع» (28/7):

«والخشوع يتضمَّن معنيين: أحدهما: التَّواضع والذُّلُّ، والثَّاني: السُّكون والطُّمأنينة، وذلك مستلزم للين القلب المنافي للقسوة».

ولذلك يجتمع الخشوع والذُّلُّ في الآية الواحدة، كما في قوله تعالى: ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ﴾ [الشورى: 45]، وفي قوله: ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ [القلم: 43].

وقد وصف الله خيار عباده بالخشوع للدَّلالة على فضله وعظم شأنه، فوصف به مؤمني أهل الكتاب فقال: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: 199]، ووصف به المسلمين والمسلمات الَّذين وعدهم بالمغفرة والأجر العظيم؛ فقال: ﴿وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ﴾ إلى قوله: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ۝٣٥﴾ [الأحزاب].

فكم ترى من مصلٍّ يُراقبُ ساعتَه في صلاته مُستكثرًا على ربِّه طولَ وُقوفه بين يدَيه، ولعلَّه لم يَمكث فيها إلاَّ دَقائقَ مَعدودةً! وكم ترى من لا يَحلُو له فرقعةُ أصابعه أو تَنقيةُ أظافيره إلاَّ إذا دخلَ في الصَّلاة!

وهو أوَّل وصف وصَف به المؤمنين المفلحين؛ فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون]، بل وصف به سادة العالمين قاطبة الأنبياء فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ۝٩٠﴾ [الأنبياء].

ومن أعظم فوائد الخشوع أنَّه يحبِّب الصَّلاة إلى صاحبه ويسهِّلها عليه حتَّى يستحليها، كما قال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ۝٤٥﴾ [البقرة]، ولذلك كان سيِّد الخاشعين أعظم النَّاس إقبالاً على الصَّلاة، كما قال ﷺ: «وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاَةِ»، وكان إذا حان وقت الصَّلاة يقول لمؤذِّنه: «أَرِحْنَا بِهَا يَا بِلاَلُ!».

حكم الخشوع

استدلَّ ابن تيمية بالآية الأخيرة على وجوب الخشوع، وقال: «وهذا يقتضي ذمَّ غير الخاشعين، كقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ [البقرة]، وقوله تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى: 13].

فقد دلَّ كتابُ الله ﷻ على من كَبُرَ عليه ما يحبُّه الله، وأنَّه مذموم بذلك في الدِّين، مسخوط منه ذلك، والذَّمُّ أو السَّخط لا يكون إلاَّ لترك واجب، أو فعل محرَّم، وإذا كان غير الخاشعين مذمومين؛ دلَّ ذلك على وجوب الخشوع.

فمن المعلوم أنَّ الخشوع المذكور في قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ۝٤٥﴾ [البقرة]، لابدَّ أن يتضمَّن الخشوع في الصَّلاة؛ فإنَّه لو كان

(1) أخرجه أحمد (23990).

المراد الخشوع خارج الصَّلاة لفسد المعنى، إذ لو قيل: إنَّ الصَّلاة لكبيرة إلاَّ على من خشع خارجها، ولم يخشع فيها، كان يقتضي أنَّها لا تكبر على من لم يخشع فيها، وتكبر على من خشع فيها، وقد انتفى مدلول الآية، فثبت أنَّ الخشوع واجبٌ في الصَّلاة.

ويدلُّ على وجوب الخشوع فيها ـ أيضًا ـ قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (3) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (4) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (5) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (6) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (7) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (8) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (9) أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (10) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (11)﴾ [المؤمنون]، أخبر ـ سبحانه وتعالى ـ أنَّ هؤلاء هم الَّذين يرثون فردوس الجنَّة، وذلك يقتضي أنَّه لا يرثها غيرهم، وقد دلَّ هذا على وجوب هذه الخصال؛ إذ لو كان فيها ما هو مستحبٌّ لكانت جنَّة الفردوس تورث بدونها؛ لأنَّ الجنَّة تُنال بفعل الواجبات، دون المستحبَّات، ولهذا لم يذكر في هذه الخصال إلاَّ ما هو واجب»[2].

ويؤيِّده قول الله ﷻ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الحديد: 16]، وقد كان رسول الله ﷺ يتعوَّذ من القلب الَّذي لا يخشع، روى مسلم عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ قَالَ: لَا أَقُولُ لَكُمْ إِلَّا كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ كَانَ يَقُولُ: **«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ وَالْجُبْنِ وَالْبُخْلِ وَالْهَرَمِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ، اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا»**[3].

ومن أعظم فوائد الخشوع أنَّه يحبِّب الصَّلاة إلى صاحبه ويسهِّلها عليه حتَّى يستحليها، كما قال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (45)﴾ [سورة البقرة]

ويوضِّحه ما رواه ابن حبَّان[4] عن عطاء قال: دخلت أنا وعبيد بن عمير على عائشة ﵂، فقال عبد الله بن عمير: حدِّثينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله ﷺ، فبكت وقالت: «قام ليلةً من اللَّيالي فقال: يَا عَائِشَةُ! ذَرِينِي أَتَعَبَّدُ لِرَبِّي، قالت: قلت: والله إنِّي لأحبُّ قربك وأحبُّ ما يسرُّك، قالت: فقام فتطهَّر، ثمَّ قام يصلِّي، فلم يزل يبكي حتَّى بلَّ حجره، ثمَّ بكى، فلم يزل يبكي حتَّى بلَّ الأرض، وجاء بلال يؤذِنُه بالصَّلاة، فلمَّا رآه يبكي قال: يا رسول الله! تبكي وقد غفر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر؟ قال: أفلا أكون عبدًا شكورًا؟ لقد نزلت عليَّ اللَّيلة آيات، ويلٌ لمن قرأها ولم يتفكَّر فيها: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: 190] الآية».

وليُعلم أنَّه نظرًا لكون الإنسان يتعامل مع غيره، ولكونه سريع التَّأثُّر بما يحيط به، ولكونه ضعيفًا كثيرَ الحوائج؛ فإنَّه لابدَّ من أن تأخذه بعض الغفلة في صلاته عن بعض الخشوع؛ ولذلك جاءَ عَن عَبد الله ابن عَنَمَةَ أنه قَالَ: رَأَيْتُ عَمَّارَ بنَ يَاسِرٍ دَخَلَ المَسْجِدَ، فَصَلَّى، فَأَخَفَّ الصَّلاَةَ، قَالَ: فَلَمَّا خَرَجَ قُمْتُ إِلَيْهِ فَقُلْتُ: يَا أَبَا اليَقْظَانِ! لَقَدْ خَفَّفْتَ؟! قَالَ: فَهَلْ رَأَيْتَنِي انْتَقَصْتُ مِنْ حُدُودِهَا شَيْئًا؟ قُلْتُ: لا، قَالَ: فَإِنِّي بَادَرْتُ بِهَا سَهْوَةَ الشَّيْطَانِ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: إِنَّ العَبْدَ لَيُصَلِّي الصَّلاَةَ مَا يُكْتَبُ لَهُ مِنْهَا إِلاَّ عُشْرُهَا، تُسْعُهَا، ثُمُنُهَا، سُبُعُهَا، سُدُسُهَا، خُمُسُهَا، رُبُعُهَا، ثُلُثُهَا، نِصْفُهَا»[5].

ومن هذا الحديث أخذ ابن عبَّاس أنَّ المصلِّي لا يُكتب له من أجر صلاته إلاَّ ما كان فيه حاضر القلب، فقال: «ليس لك من صلاتك إلاَّ ما عقلتَ منها».

قال ابن القيِّم في «البدائع» (283/3): «وهذا بإجماع السَّلف».

لكن إذا كان العبد في همِّ دينه ودخل في صلاته وهمُّه معه فليس من حديث النَّفس المذموم، فقد روى البخاري تعليقًا ووصله ابن نصر في «تعظيم قدر الصَّلاة» (958/2) بسند صحيح ـ واللَّفظ له ـ عن عمر أنَّه صلَّى المغرب فلم يقرأ، فلمَّا انصرف قيل له؟! قال: إنِّي حدَّثت نفسي وأنا في الصَّلاة بعير جهَّزتها من المدينة فلم أزل أنزلها حتَّى دخلت الشَّام، فأعاد الصَّلاة وأعاد القراءة».

وهذا في حقِّ رجل كان شديد الاهتمام بشأن رعيَّته، وقد استوعب ذلك فكره ووقته، فيكون تفكيره من نوع الجهاد في سبيل الله، كما نبَّه عليه ابن رجب في «فتح الباري» (433/6)، وكذلكَ إذا خافَ ضَياعَ بَعض ماله وهو في الصَّلاة فإنَّه يَجوزُ له أن يُحدث بَعضَ الحركة لحاجته.

روى البخاري (1211) عن الأَزْرَق ابن قَيْسٍ قَالَ: «كُنَّا بِالأَهْوَازِ نُقَاتِلُ الحَرُورِيَّةَ، فَبَيْنَا أَنَا عَلَى جُرُفِ نَهَرٍ؛ إِذَا رَجُلٌ يُصَلِّي وَإِذَا لِجَامُ دَابَّتِهِ بِيَدِهِ فَجَعَلَتِ الدَّابَّةُ تُنَازِعُهُ وَجَعَلَ يَتْبَعُهَا، قَالَ شُعْبَةُ: هُوَ أَبُو بَرْزَةَ الأَسْلَمِيُّ، فَجَعَلَ رَجُلٌ مِنَ الخَوَارِجِ يَقُولُ: اللَّهُمَّ افْعَلْ بِهَذَا الشَّيْخِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ الشَّيْخُ؛ قَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ قَوْلَكُمْ وَإِنِّي غَزَوْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سِتَّ غَزَوَاتٍ أَوْ سَبْعَ غَزَوَاتٍ وَثَمَانِيَ وَشَهِدْتُ تَيْسِيرَهُ، وَإِنِّي إِنْ

(2) «مجموع الفتاوى» (22/553 ـ 554).

(3) «صحيح مسلم» (2722).

(4) برقم (620)، وانظر «الصحيحة» (68).

(5) رواه أحمد (18894) وهو صحيح.

كُنْتُ أَنْ أُرَاجِعَ مَعَ دَابَّتِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَدَعَهَا تَرْجِعُ إِلَى مَأْلَفِهَا فَيَشُقُّ عَلَيَّ».

في هذه القصَّة دليلٌ واضحٌ على أنَّ هذا الصَّحابيَّ قامَ ببعض الحركة في الصَّلاة من أجل المُحافظة على دابَّته الَّتي لو ذهبَت عنه لما وجدَ ما يوصلُه إلى بيته الشَّاسعة.

وفي بعض الرِّوايات أنَّ ذلك كانَ سيُكلِّفه الدُّخولَ إلى بيته في ساعةٍ متأخِّرةٍ من اللَّيل.

حكم إعادة الصلاة التي لم يخشع فيها صاحبها

قالَ ابن تيمية في «منهاج السُّنَّة» (195/5): «والوسواسُ الخَفيفُ لاَ يُبطل الصَّلاة باتِّفاق العُلماء، وأمَّا إذا كانَ هو الأَغلب؛ فقيلَ: عليه الإعادة، وهو اختيارُ أبي عبد الله بن حامد، والصَّحيحُ الَّذي عليه الجُمهورُ ـ وهو المَنصوصُ عن أحمد وغيره ـ أنَّه لاَ إعادةَ عليه؛ فإنَّ حديثَ أبي هُريرة عامٌّ مُطلَقٌ في كلِّ وسواس ولم يَأمر بالإعادة؛ لَكن يَنقصُ أجرُه بقَدر ذلكَ، قالَ ابنُ عبَّاس: «ليسَ لكَ من صلاتك إلاَّ ما عَقلت منها»، وفي «السُّنن» عن عمَّار ابن ياسر أنَّه صلَّى صلاةً فخفَّفَها، فقيلَ له في ذلك؟ فقالَ: هَل نَقصتُ منها شيئاً؟ قالُوا: لاَ، قالَ: فإنِّي بدَرتُ الوسواسَ، وإنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَنصَرِفُ مِن صَلاَتِهِ وَلَمْ يُكْتَبْ لَهُ مِنهَا إِلاَّ عُشْرُهَا، إِلاَّ تُسْعُهَا، إِلاَّ ثُمُنُهَا حَتَّى قَالَ: إِلاَّ نِصْفُهَا**»، وهذا الحديث حجَّة على ابن حامد فإنَّ أدنى ما ذكر نصفها، وقد ذكر إنَّه يكتب له عشرها، وأداء الواجب له مقصودان؛ أحدهما: براءة الذِّمَّة بحيث يندفع عنه الذَّمُّ والعقاب المستحقّ بالتَّرك، فهذا لا تجب معه الإعادة، فإنَّ الإعادة يبقى مقصودها حصول ثواب مجرَّد وهو شأن التَّطوُّعات، لكن حصول الحسنات الماحية للسَّيِّئات لا يكون إلاَّ مع القَبول الَّذي عليه الثَّواب، فبقدر ما يكتب له من الثَّواب يكفَّر عنه به من السَّيِّئات الماضية، وما لا ثواب فيه لا يكفِّر، وإن برئت به الذِّمَّة كما في الحديث المأثور: «**رُبَّ صَائِمٍ لَيْسَ حَظُّهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلاَّ الجُوعُ وَالعَطَشُ، وَرُبَّ قَائِمٍ حَظُّهُ مِنْ قِيَامِهِ السَّهَرُ**»، يَقُولُ: إِنَّهُ تَعِبَ وَلَمْ يَحْصُلْ لَهُ مَنْفَعَةٌ؛ لَكِنْ برئت ذمَّته؛ فسلم من العقاب، فكان على حاله لم يزدد بذلك خيرًا، والصَّوم إنَّما شُرع لتحصيل التَّقوى كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖ﴾ [البقرة]، وقال النَّبيُّ ﷺ: «**الصِّيَامُ جُنَّةٌ؛ فَإِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ صَائِمًا فَلاَ يَرْفُثْ وَلاَ يَجْهَلْ، فَإِنِ امْرُؤٌ شَاتَمَهُ أَوْ قَاتَلَهُ فَلْيَقُلْ إِنِّي صَائِمٌ**»، وفيها ثلاثة أقوال في مذهب أحمد وغيره، قيل: يقول في نفسه فلا يردُّ عليه، وقيل: يقول بلسانه، وقيل: يفرِّق بين الفرض فيقول بلسانه والنَّفل يقول في نفسه، فإنَّ صوم الفرض مشترك والنَّفل يخاف عليه من الرِّياء، والصَّحيح أنَّه يقول بلسانه كما دلَّ عليه الحديث؛ فإنَّ القول المطلق لا يكون إلاَّ باللِّسان، وأمَّا ما في النَّفس فمقيَّد كقوله: «**عمَّا حدَّثت به أنفسها**» ثمَّ قال: «**مَا لَمْ تَتَكَلَّمْ أَوْ تَعْمَلْ بِهِ**»، فالكلام المطلق إنَّما هو الكلام المسموع، وإذا قال بلسانه إنِّي صائم بيَّن عذره في إمساكه عن الرَّدِّ، وكان أزجر لمن بدأه بالعدوان، وفي «الصَّحيحين» عنه ﷺ أنَّه قال: «**مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لله حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ**»، بيَّن ﷺ أنَّ الله تعالى لم يحرِّم على الصَّائم الأكل لحاجته إلى ترك الطَّعام والشَّراب كما يحرِّم السَّيِّد على عبيده بعض ماله، بل المقصود محبَّة الله تعالى، وهو حصول التَّقوى، فإذا لم يأت به فقد أتى بما ليس فيه محبَّة ورضا، فلا يثاب عليه، ولكن لا يعاقب عقوبة التَّارك، والحسنات المقبولة تكفِّر السَّيِّئات، ولهذا قال ﷺ في الحديث الصَّحيح: «**الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ وَالجُمُعَةُ إِلَى الجُمُعَةِ وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتُنِبَتِ الكَبَائِرُ**»، ولو كفَّر الجميع بالخمس لم يحتج إلى الجمعة، لكن التَّكفير بالحسنات المقبولة، وغالب النَّاس لا يكتب له من الصَّلاة إلاَّ بعضها، فيكفَّر ذلك بقدره والباقي يحتاج إلى تكفير، ولهذا جاء من غير وجه عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**أَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ عَلَيْهِ العَبْدُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ أَعْمَالِهِ الصَّلاَةُ، فَإِنْ أُكْمِلَتْ وَإِلاَّ قِيلَ انْظُرُوا هَلْ لَهُ مِنْ تَطَوُّعٍ، فَإِنْ كَانَ لَهُ تَطَوُّعٌ أُكْمِلَتْ بِهِ الفَرِيضَةُ ثُمَّ يُصْنَعُ فِي سَائِرِ الأَعْمَالِ كَذَلِكَ**»، وتكميل الفرائض بالتَّطوُّع مطلق؛ فإنَّه يكون يوم القيامة يوم الجزاء، فإنَّه إذا ترك بعض الواجبات استحقَّ العقوبة، فإذا كان له من جنسه تطوُّع سدَّ مسدَّه فلا يعاقب، وإن كان ثوابه ناقصًا وله تطوُّع سدَّ مسدَّه فكمل ثوابه، وهو في الدنيا يُؤمر بأن يُعيد حيث تمكن إعادة ما فعله ناقصًا من الواجبات أو يجبره بما ينجبر به كسجدتي السَّهو في الصَّلاة وكالدَّم الجابر لما تركه من واجبات الحجِّ ومثل صدقة الفطر الَّتي فُرضت طهرة للصَّائم من اللَّغو والرَّفث، وذلك لأنَّه إذا أمكنه أن يأتي بالواجب كان ذلك عليه ولم يكن قد برئ من عُهْدَته، بل هو مطلوب به كما لو لم يفعله، بخلاف ما إذا تعذَّر فعله يوم الجزاء فإنَّه لم يبق هناك إلاَّ الحسنات».



أ. د. محمد علي فركوس
أستاذ بكلية العلوم الإسلامية بجامعة الجزائر

فتاوى شرعية

في حكم المستفاد من مال الزَّكاة أثناء الحول وحالاته

السُّؤال:

أنا رجلٌ تاجرٌ، لا يستقرُّ دخلي المالي جَلبًا وإنفاقًا، ممَّا يُصَعِّبُ عليَّ ضبط بداية الحول ونهايته، وغالبًا ما أضبط الحَول تقديرًا، فهل يجوز لي هذا الفعل؟

وإذا كان عندي مالٌ مستقلٌ استفدته من إرث، فهل لي أن أجعل له حولاً خاصًّا به، والمال المكتسب من تجارتي أجعل له ـ أيضًا ـ حولاً خاصًّا به؟ أم يجب ضمُّهما والاعتداد بحول واحدٍ.

الجواب:

فمضمون السُّؤال يستدعي أن نُفرِّق في الجواب بين الحالات التَّالية:

الحالة الأولى:

إذا كان مالُ التَّاجر قد بلغ النِّصابَ، وله مداخيل من جِنس أصل ماله، أي: من نماء تجارته فلا خلاف بين العلماء في أنَّ المال المستفاد المكتسب من تجارته يَضُمُّه إلى الأصل ويعتبر حوله بحولان أصل ماله.

قال ابن قدامة رحمه الله:

«لا نعلم فيه خلافًا؛ لأنَّه تبع له من جنسه، فأشبه النَّماء المتَّصل، وهو زيادة قيمة عروض التِّجارة»(1).

ولا تأثير للنَّفقات والمصاريف طِيلة الحول على وجوب الزَّكاة؛ ما دامت لا تنقص مالَه عن حدِّ النِّصاب سواء تحدَّد النِّصاب بالنَّقد أو بالسِّلع المعروضة للبيع أو بهما.

فإنَّ التَّاجر يقوم عند حلول الحول بتجريد السِّلع وتقويمها بسعرِ الحال وبالتَّصفية والفرز، ثمَّ يزكِّي جميع أمواله الأصليَّة والمستفادة تَبَعًا لأوَّل نصابٍ ملكه.

أمَّا إذا كانت المصاريف والنَّفقات تنقصه عن حَدِّ النِّصاب؛ فإنَّ تأثيرها ظاهرٌ في عدم وجوب الزَّكاة، ويستمرُّ الحكم على هذه الحال حتَّى ينمو ماله من جديد فيبلغ حدَّ النِّصاب، ويستأنف حساب الحول من بلوغه، ويزكِّي عند حلوله ـ كما تقدَّم ـ.

الحالة الثَّانية:

إذا كان المال المستفاد من غير جنس المال الَّذي عنده؛ كأن يكون تاجرًا في الماشية فاستفاد إرثًا من ذهبٍ بلغ النِّصاب أو العكس؛ فإنَّه ـ في هذه الحال ـ يعتبر الحول في المال المستفاد من يوم استفادته إن بلغ النِّصاب، ويزكِّيه عند حلوله، ولا يضمُّه إلى المال الأصلي لاختلاف الجنسين.

الحالة الثَّالثة:

إذا كان المال المستفاد من جنس المال الأصلي، ولكنَّه ليس متولِّدًا من نماء تجارته، وإنَّما هو من مورد ماليٍّ آخر؛ كاستفادته من هبةٍ أو إرثٍ أو من مرتَّبه الوظيفي، وكانت الاستفادة من جنس ماله، وبلغ حدَّ النِّصاب، فالأصل أن يضمَّ المال المستفاد إلى ماله الأصلي، فيتبعه في النِّصاب دون الحول لاتِّحاد الجنسين، ويزكِّي كلاًّ من المال الأصلي والمستفاد باعتبار حوله الخاصِّ به.

(1) «المغني» لابن قدامة (2/626).

فإن حصلت له مشقَّة في التزام الحول الخاصِّ بالأموال المستفادة، فله أن يضمَّ الأموال المستفادة إلى المال الأصلي الأوَّل ويزكِّي أمواله جميعًا عند تمام الحول الأوَّل، إذ «**المَشَقَّةُ تَجْلِبُ التَّيْسِيرَ**»، وتندرج الأموال المستفادة ضمن الزَّكاة المعجَّلة قبل تمام الحول، ولا مانع شرعًا من تعجيل الزَّكاة إذا دعت المصلحة أو الحاجة إلى ذلك، وهذا التَّعجيل ـ بلا شكٍّ ـ أحظى للفقير والمسكين وسائر المستحقِّين، وأجمع لقلبه وأوفر لراحته وأوسع لأجره.

يشهد له ما ثبت عن عليٍّ رضي الله عنه: «**أَنَّ العَبَّاسَ سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ فِي تَعْجِيلِ صَدَقَتِه قَبْلَ أَنْ تَحِلَّ فَرَخَّصَ لَهُ فِي ذَلِكَ**»[2]، وفي رواية: «**أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ تَعَجَّلَ مِنَ العَبَّاسِ صَدَقَةَ سَنَتَيْنِ**»[3].

وإنَّما الَّذي لا يجوز هو تأخير الزَّكاة بعد تمام الحول باستثناء ما إذا كان للمزكِّي عذرٌ شرعيٌّ يحول دون إخراجها في وقتها، كأن يُحْجَزَ مالُه إلى وقت فوات الحول أو تعسَّر عليه وجود المستحقِّين للزَّكاة ونحو ذلك من الأعذار المسوِّغة للتَّأخير، والعلمُ عند الله تعالى.



(2) أخرجه أبو داود (1624)، والترمذي (678)، وابن ماجه (1795)، وأحمد (1/ 104). والحديث صحَّحه أحمد شاكر في تحقيقه لـ «مسند أحمد» (141/2)، وحسَّنه الألباني في «الإرواء» (348/3).

(3) أخرجه أبو عبيد في «الأموال» (1885)، وحسَّنه الألباني في «الإرواء» (346/3).

في حكم التَّسمية بمناسبةٍ دينيةٍ أو فصليةٍ وضوابطُ الأسماء المنهي عنها

السُّؤال:

عندنا في عوائدنا بعض الأسماء الَّتي تُطلق على المولودين إذا تزامنت مع مناسبةٍ دينيَّةٍ أو فصليَّةٍ تفاؤلاً، كالتَّسمية بـ«عاشور» إذا صادف اليوم العاشر من المحرَّم، و«ربيع» إذا دخل فصل الرَّبيع، و«مولود» بمناسبة المولد، و«شعبان» و«رمضان» و«العيد».

فهل يجوز التَّسمِّي بهذه الأسماء؛ إذا اقترنت بهذه المناسبات؟ وهل هي أسماءٌ مشروعةٌ يجوز إطلاقها على المولودين غير مقترنة بالأزمنة السَّالفة الذِّكر؟ وهل من أصل يُرْجَعُ إليه في ضبط الأسماء المنهيِّ عنها؟ أفتونا مأجورين.

الجواب:

من المعلومُ أنَّ الأسماءَ والألقابَ والكنى تدخلُ في بابِ العاداتِ والمعاملاتِ، والأصلُ فيها الحِلُّ والجوازُ.

ولا يُنتقل عن هذا الأصلِ إلاَّ إذا قام الدَّليلُ على المنعِ والتَّحريم.

ومن ضوابط الأسماء المستثناة من الأصل الَّتي تندرج تحت حكمِ التَّحريم أو الكراهة ما يلي:

ـ ما كان فيه شركٌ كالتَّعبيد لغير الله تعالى: كـ«عبد العزى»، «عبد الكعبة»، «عبد هبل»، «عبد الرَّسول» و«عبد الزُّهير».

ـ وما كان خاصًّا بالله تعالى ولا يليقُ إلاَّ به: مثل «الرَّحمن» و«القدُّوس» و«المُهَيْمِن» و«الخالق»، ويلحق بها «ملك الأملاك»[4] و«قاضي القضاة».

ـ وما كان من أسماءِ الشَّياطين: كـ«إبليس» و«شيطان» و«الأعور» و«الولهان» و«خنزب».

ـ وما كان من أسماءِ الفراعنةِ والجبابرة: مثل «فرعون» و«هامان» و«قارون».

ـ وما كان خاصًّا بأسماء القرآن: كـ«فرقان».

ـ وما كان من الأسماء خاصًّا بالكفَّار: كـ«جورج» و«بولس» و«بطرس» و«يوغرطة» و«ماسينيسا».

ـ وما كان من الأسماء فيه تزكية: كـ«برَّة»[5] و«إيمان» و«إسلام» و«أبرار» و«تقوى»، ومن الألقاب: «محيي الدِّين» و«عماد الدِّين» و«ركن الدِّين»؛ لأنَّ فيه تزكيةً وكذبًا، ومن ذلك ـ أيضًا ـ الألقابُ الحادثة الَّتي يقصد بها آيةٌ خارقةٌ للعادة مثل: «حُجَّة الله» و«آية الله» و«برهان الدِّين» و«حُجَّة الإسلام»؛ لأنَّه لا حجَّة لله على عباده إلاَّ الرُّسل، ومن هذا القبيل ـ أيضًا ـ التَّسمِّي بـ«سيِّد النَّاس» أو «سيِّد العرب» أو «سيِّد العلماء» أو «سيِّد القضاة».

ـ وما كان من الأسماء فيه ذمٌّ وقُبح وذكرٌ سيءٌ مثل: «حَزْن» و«شهاب» و«ظالم» و«ناهد»[6] و«غادة»[7]، و«كاهن» أو «كاهنة»

(4) وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «أَغْيَظُ رَجُلٍ عَلَى اللهِ يَوْمَ القِيَامَةِ وَأَخْبَثُهُ وَأَغْيَظُهُ عَلَيْهِ رَجُلٌ كَانَ يُسَمَّى مَلِكَ الأَمْلاكِ، لاَ مَلِكَ إِلاَّ اللهُ». [أخرجه البخاري (6205)، ومسلم (2143)].

(5) وفي «الصَّحيحين»: «أَنَّهُ ﷺ غَيَّرَ اسْمَ بَرَّة إلى اسْمِ زَيْنَبَ». وهي زينبُ بنتُ جحش رضي الله عنها. [أخرجه البخاري (6192)، ومسلم (2140) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه].

(6) «ناهد»: «هي المرأة الَّتي كعب ثديها وارتفع عن الصَّدر فصار لها حجم» [انظر «المعجم الوسيط» (957/2)].

(7) «غادة»: «هي المرأة النَّاعمة اللَّيِّنة البيِّنة الغَيَد» [انظر «المعجم الوسيط» (667/2)، و«فتح الباري» لابن حجر: (576/10)].

و«عاصية»[8] و«جهنَّم» و«سعير» و«سَقَر» و«حُطَمة» و«الأعور» و«الأبرص» و«الأجرب» و«الأعمش» ونحو ذلك.

- وما كان من الأسماء الَّتي تحمل فيها تشاؤمًا بنفيها مثل: «نجيح» و«بركة» و«أفلح» و«يسار» و«رباح»[9].

- ويُكره التَّسمِّي بأسماءِ الملائكة مثل: «جبريل» و«مكائيل» و«إسرافيل» لكونها أسماءً خاصَّة بهم، ويرتقي الحكم إلى الحرمة إذا سُمِّيت البناتُ بأسماء الملائكةِ مثل: «ملاك» و«مَلَكَة»؛ لما فيها من مضاهاة المشركين في جعلهم الملائكةَ بناتِ الله.

فإذا خلت الأسماء من جملة ضوابط الأسماء المندرجة تحت حكم التَّحريم والكراهة السَّالفة البيان؛ فلا أعلم ما يُخْرِجُ التَّسميةَ بالشُّهور والمناسبات الدِّينيَّة أو الفَضْليَّةِ عن الأصلِ المبيح إذا قُصد بها تمييزُ شخصٍ عن غيره لحدوثِ التزامن والتَّطابق.

اللَّهمَّ إلاَّ إذا تعلَّقت بها عادةٌ منكرةٌ أو اعتقادٌ فاسدٌ؛ فيُمنع من أجله، وقد كان من شأنِ العرب في تسمية أولادها بأسماءِ الجمادِ والحيوانِ وبعضِ الشُّهور مثل: «صخر» و«جعفر» و«جبل» و«صفوان» و«بدر» و«قمر» و«نجم» و«ثريَّا»، ومن أسماءِ الحيوان مثل: «أسد» و«ليث» و«فهد» و«ثعلب»، ومن الشُّهور مثل «الرَّبيع»[10] ومنه «سعد بن الرَّبيع»[11] و«أبو العاص بن الرَّبيع»[12] حيث كانوا يقصدون من وراء هذه الأسماء تمييزَ شخصٍ عن غيره أوَّلاً، والتَّطلُّعَ - ثانيًا - إلى تحقيقِ الملازمةِ الوصفيَّةِ الكامنةِ في الاسم مستقبلاً في سلوك الولد وسيرته، تلك الوصفيَّةُ الَّتي تدلُّ على معانٍ جميلةٍ وجليلةٍ كالقوَّة والشَّجاعة والعلوِّ والتَّدبير والتَّفكير والوفاء والصَّلابة والشَّهامة والأمانة، ونحو ذلك ممَّا يحتاج إليه في مواقف العزَّة والحروب.

وهذا المعنى من التَّلازم الحقيقي أو الوصفي مراعىً في كلام النَّبيِّ ﷺ، فقد قيل: إنَّه كنَّى عبدَ الرَّحمن بن صخر الدُّوسي بأبي هريرة ﵁، والمشهور عنه أنَّه كُنِّيَ بأولاد هرَّة برِّيَّة وجدها فأخذها في كمِّه فكُنِّيَ بها[13]، ولقَّب النَّبيُّ ﷺ خالدَ ابنَ الوليد ﵁ بأنَّه «**سَيْفٌ مِنْ سُيوفِ الله**»[14] من إضافة المخلوق إلى الخالق لملازمته الجهاد في سبيل الله ونحو ذلك.

هذا؛ وإن كان الأصلُ في هذه الأسماء الحلَّ والإباحة إلاَّ أنَّ المطلوبَ من الآباء تحسينُ أسماء أولادهم؛ لأنَّهم يُدْعَون يوم القيامة بأسمائهم وأسماء آبائهم؛ كما صحَّ عن ابن عمرَ ﵄ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**إِنَّ الغَادِرَ يُرْفَعُ لَهُ لِوَاءٌ يَوْمَ القِيَامَةِ يُقَالُ: هَذِهِ غَدْرَةُ فُلاَنِ بْنِ فُلاَنٍ**»[15]، وقد بوَّب له البخاري ﵀: «باب ما يُدعى النَّاس بآبائهم»، ولا شكَّ أنَّ: **أَحَبَّ الأَسْمَاءِ إلى الله عَبْدُ الله وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ**[16] وكلُّ ما أُضيف إلى الله - سبحانه - فهو أولى وأفضل، والعلم عند الله تعالى.

وإن كان الأصلُ في هذه الأسماء الحلَّ والإباحة إلاَّ أنَّ المطلوبَ من الآباء تحسينُ أسماء أولادهم؛ لأنهم يدعون يوم القيامة بأسمائهم وأسماء آبائهم

في صفة الأمر في قوله ﷺ: «مُرُوا أَوْلاَدَكُمْ بالصَّلاَةِ..»

السُّؤال:

قوله ﷺ: «**مُرُوا أَوْلاَدَكُمْ بالصَّلاَةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ**»، رواه أبو داود وغيره.

هل من أمرٍ بمطلق الصَّلاة أم أنَّه أمرٌ بالصَّلاة مطلقًا؟ بمعنى: هل يكفي أمره بالقيام إلى الصَّلاة لمجرَّد تعويده عليها أم أنَّه يلزم أمره بالقيام بها عند أوقاتها الخمسة بما في ذلك الفجر والعشاء، مع أنَّهما قد تشقَّان عليه؟ وهل يُؤمر بإعادتها إذا أخلَّ ببعض شروطها أو أركانها أو واجباتها كالطَّهارة والطُّمأنينة؟ وهل يؤمر بالجماعة في المسجد؟ أفيدونا، وجزاكم الله خيرًا.

(8) وصحَّ من حديث ابن عمر ﵄ «أنَّ النَّبيَّ ﷺ غيَّر اسم عاصية وقال: «أَنْتِ جَمِيلَةُ»» [أخرجه مسلم (2139)].

(9) وقد ثبت من حديث سمرة بن جندب ﵁ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**لاَ تُسَمِّ غُلاَمَكَ رَبَاحًا وَلاَ يَسَارًا وَلاَ أَفْلَحَ وَلاَ نَافِعًا**» [أخرجه مسلم (2136)، وأبو داود (4958)، والترمذي (2858)].

(10) من «أربعت الأرض» إذا أخصبت؛ لأنَّه شهرُ العنب والخضار والمطر، كانوا يقيمون فيه عمارة ربعهم.

(11) هو الصَّحابي سعدُ بن الرَّبيع الأنصاري الخزرجي البدري النَّقيب ﵁ الَّذي آخى النَّبيُّ ﷺ بينَه وبين عبد الرَّحمن بن عوف، ومات يوم أحد شهيدًا. [انظر: «الاستيعاب» لابن عبد البرِّ (145/4)، «سير أعلام النُّبلاء» للذَّهبي (318/1)، «الإصابة» لابن حجر (144/4)].

(12) هو أبو العاص بن الرَّبيع القرشي صهرُ النَّبيِّ ﷺ وزوجُ ابنته زينب، وهو والد أمامة الَّتي كان يحملها النَّبيُّ ﷺ في صلاته، وهو ابنُ أخت أمِّ المؤمنين خديجةَ بنت خويلد وأمُّه هالةُ بنتُ خويلد توفي سنة (12هـ). [انظر ترجمته في: «سير أعلام النُّبلاء» (330/1)].

(13) انظر: «سير أعلام النُّبلاء» للذَّهبي (579/2)، و«تهذيب التَّهذيب» لابن حجر (263/12)، وقد أخرج التِّرمذي (686/5) عن عبد الله بن رافع قال: «قلت لأبي هريرة: لم كُنِّيت أبا هريرة؟ قال: أما تفرق منِّي؟ قلت: بلى والله إنِّي لأهابك قال: كنت أرعى غنمَ أهلي وكانت لي هريرة صغيرة فكنت أضعها باللَّيل في شجرة فإذا كان النَّهار ذهبت بها معي فلعبت بها فكنَّوني أبا هريرة» والحديث حسَّن الألباني إسناده في «صحيح التِّرمذي» (3840)].

(14) أخرجه البخاري (3757)، من حديث أنس ﵁.

(15) أخرجه البخاري (6177).

(16) انظر: مسلم (2132)، وأبو داود (4949)، من حديث ابن عمر ﵄.

الجواب

الأمر الوارد في الحديث المذكور «**مُرُوا أَوْلاَدَكُمْ بالصَّلاَة..**»[17] ليس خطابًا من الشَّارع للصَّبيِّ ولا إيجابًا عليه؛ لأنَّ الأصل أنَّ «الأمر بالأمر بالشَّيء ليس أمرًا به» ما لم يدلَّ عليه دليل أو قرينة صارفة إلى الوجوب، مثل قوله ﷺ لعمر بن الخطَّاب رضي الله عنه في شأن طلاق ابنه عبد الله رضي الله عنه امرأته في الحيض: «**مُرْهُ فَلْيُرَاجِعْهَا**»[18]، فقرينة لام الأمر في قوله: «**فَلْيُرَاجِعْهَا**» صدرت متوجِّهة إلى ابن عمر رضي الله عنه فيكون مأمورًا به بلا خلاف[19].

قال القرافي رحمه الله:

«لأنَّ الأمر بالأمر لا يكون أمرًا، لكن علم أنَّ كلَّ مَنْ أمره رسول الله ﷺ أن يأمر غيره، فإنَّما هو على سبيل التَّبليغ، ومتى كان على سبيل التَّبليغ صار الثَّالث مأمورًا إجماعًا»[20].

هذا؛ ومن جهة أخرى فإنَّ الأمر بالصَّلاة في الحديث المذكور هو أمرٌ بالصَّلاة مطلقًا بجميع لوازمها ومقتضياتها، وليس الأمر فيه بمطلق الصَّلاة ومجرَّد تعليمها له وتعويده عليها؛ ذلك لأنَّ المعلوم أصوليًّا أنَّ: «الأمر بالشَّيء أمر بجميع لوازمه وبما لا يتمُّ إلاَّ به» سواء كان حكم الأمر على الوجوب أو على النَّدب، إذ المطلوب من جهة الشَّرع إنَّما هو الأمر بالقيام بها على وجه الحقيقة الشَّرعيَّة، أي: يَلْزَمُ وَلِيَّ الصَّغيرِ أن يأمره بكلِّ ما يصحِّح به صلاته من طهارة واستقبال القبلة وستر العورة وكيفية أداء الصَّلاة على الوجه الصَّحيح.

ويدلُّ عليه؛ أنَّ الصَّبيَّ يُؤجر عليها إذا صلَّى هو ووليُّه لعموم قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: 160]، وقوله ﷺ لمَّا رَفعتْ إليه امرأة صبيًّا فقالت: «يا رسول الله! ألهذا حجٌّ؟»، قال: «**نَعَمْ، وَلَكِ أَجْرٌ**»[21].

كما يدلُّ عليه من ناحية أخرى أنَّ الصَّبيَّ المميِّز يلحق بالبالغ في بطلان عبادته إذا تعمَّد المبطلَ من نواقض الوضوء ونحوها[22].

وبناءً عليه؛ فليس لوليِّ الصَّبيِّ المميِّز أن يأمره بمطلق الصَّلاة، وإنَّما يكون أمره بالصَّلاة مطلقًا ليربِّيَه على الاهتمام بها والتَّمرُّن عليها على وجهها الشَّرعيِّ الصَّحيح، سواء شقَّت عليه أو لم تَشُقَّ؛ لأنَّ القيام بتعليمه لعبادة الصَّلاة وغيرها إنَّما يدخل في باب تبليغ ما أمر النَّبيُّ ﷺ أن يأمر به الصَّبيَّ المميِّز، ويبقى خطاب النَّدب ثابتًا في حقِّ الصَّبيِّ، فلا إثم عليه بترك واجب ولا بارتكاب حرام، أي لا تلحقه التَّكاليف الشَّرعيَّة مطلقًا؛ من الواجبات والمحرَّمات والحدود والتَّصرُّفات على مذهب جمهور العلماء[23]؛ لأنَّ القلم مرفوع عنه حتَّى يبلغ كما ثبت في الحديث[24]، والعلم عند الله تعالى.

(17) أخرجه أبو داود (495)، والحاكم في «المستدرك»: (197/1)، من حديث ابن عمرو رضي الله عنه، والحديث حسَّنه النَّوويُّ في «الخلاصة» (252/1)، وصحَّحه ابن الملقن في «البدر المنير» (238/3)، والألباني في «الإرواء» (266/1).

(18) أخرجه البخاري (5251)، ومسلم (1471)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(19) انظر: «روضة النَّاظر» لابن قدامة (96/2)، و«مذكِّرة الشِّنقيطي» (198).

(20) «شرح تنقيح الفصول» للقرافي (148-149).

(21) أخرجه مسلم (1336)، من حديث ابن عبَّاس رضي الله عنهما.

(22) «الأشباه والنَّظائر» للسُّيوطي (219).

(23) قال الشِّنقيطي في «مذكِّرة أصول الفقه» (30): «وعن أحمد رواية مرجوحة بتكليف الصَّبيِّ المميِّز، ومذهب مالك وأصحابه تكليف الصَّبيِّ بالمكروه والمندوب فقط دون الواجب والحرام».

(24) ولفظ الحديث: «رُفِعَ القَلَمُ عَنْ ثَلاَث: عَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، وَعَنِ الصَّغِيرِ حَتَّى يَكْبَرَ. وفي رواية: حَتَّى يَحْتَلِمَ. وَعَنِ المَجْنُونِ حَتَّى يَعْقِلَ أَوْ يُفِيقَ» [أخرجه أبوداود (4398) والنَّسائي (3432)، وابن ماجه (2041)، من حديث عائشة رضي الله عنها. والحديث صحَّحه الألباني في «الإرواء» (4/2)].

في ضوابط نصيحة أئمَّة المسلمين [حكَّامًا وعلماء]

السُّؤال

نرجو - من فضيلتكم - بيانًا حول حديث النَّصيحة المشهور، وأين يمكن تصنيف العلماء والدُّعاة والأئمَّة في قوله ﷺ: «لله وَلكتَابه وَلرَسُوله وَلأَئمَّة المُسْلمينَ وَعَامَّتهمْ»[25]؟ وهل توجيه النُّصح للعلماء والدُّعاة وتبيين أخطائهم عن طريق شبكة الأنترنت يُعَدُّ من النُّصح المشروع؟ وكيف يتمُّ نصحهم إذا دعت الحاجة إلى ذلك؟

الجواب

أهل العلم بالقرآن والسُّنَّة وحملةُ الفقه والحكمة والاجتهاد والدُّعاةُ إلى الله بالحُجَّة والبرهان يُصَنَّفُونَ مع أئمَّة المسلمين من الحكَّام والأمراء وقادتهم ومَن ينوب عنهم، يَشْمَلُهُم جميعًا حديث النَّصيحة المشهور من جهة قوله ﷺ: «...**وَلأَئمَّة المُسْلمينَ..**»، وهم أولو الأمر في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: 59]، فالعلماء هم قادة الأمَّة بشريعة الإسلام، والحكَّام والأمراء قادة الأمَّة بالسُّلطة والتَّنفيذ، وقد جعل الله - سبحانه - طاعة أولي الأمر تابعةً لطاعة الله وطاعة الرَّسول ﷺ، إذ «**لاَ طَاعَةَ لمَخْلُوق في مَعْصيَة الخَالق**»[26].

(25) أخرجه مسلم (55)، من حديث تميم الدَّاري رضي الله عنه.

(26) أخرجه أحمد (66/5)، والطبراني في «المعجم الكبير»: (170/18) واللَّفظ له، من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه، والحديث صحَّحه الألباني في «صحيح الجامع»: (7520).

وممَّا يدلُّ على جواز إطلاق اسم أولي الأمر على العلماء قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ١٢٢﴾ [التوبة]، فقد أوجب الله الحذر بإنذارهم، وألزم المنذَرين قَبول قولهم.

وقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: 59].

وليس لغير العلماء معرفة كيفيَّة ردِّ المتنازَع فيه إلى الكتاب والسُّنَّة.

فدلَّ هذا على صِحَّة كون سؤال العلماء واجبًا وامتثال فتواهم لازمًا[27]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: 83].

والمُسْتَنْبِطُ إنَّما هو العالم الفقيه الَّذي يستخرج الحكمَ باجتهاده وفهمه، فالآية دَلَّت على أنَّ القياس والاعتبار حُجَّةٌ في الشَّرع وأنَّه صفة لأولي الأمر، فلذلك ذهب ابن عبَّاس رضي الله عنهما إلى أنَّ «أولي الأمر» هم العلماء حيث كانوا، وهو قول جابر ومجاهد وغيرهم من السَّلف، وبه قال مالك ـ رحمهم الله جميعًا ـ.

ولا مانع من إرادة الصِّنفين معًا، فالعلماء أهل الإرشاد والدَّلالة يُسْتَنَدُ إليهم في أمر الشَّرع والعلم به، والحكَّام والأمراء أهل الإلزام والتَّنفيذ يُسْتَنَدُ إليهم في تنفيذ الشَّرع وإمضائه، فبصلاح العلماء والحكَّام تصلح الأمور وتستقيم، وبفسادهم تفسد الأمور وتضطرب وتنحرف.

فالعلماء هم قادة الأُمَّة بشريعة الإسلام، والحكَّام والأمراء قادة الأمَّة بالسُّلطة والتَّنفيذ، وقد جعل الله ـ سبحانه ـ طاعة أولي الأمر تابعةً لطاعة الله وطاعة الرَّسول ﷺ، إذ «لاَ طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الخَالِقِ»

(27) «تفسير القرطبي» (5/260).

فإذا تقرَّر هذا؛ فإنَّ طريقة النَّصيحة الَّتي يحصل بها المقصود وتسلم من المحذور أن تحاط بجملة ضوابط أضعها بين يدي النَّاصح وهي:

أوَّلاً: الإخلاص في النَّصيحة وابتغاء وجه الله بها؛ لأنَّ النَّصيحة عبادة، وقد سمَّاها النَّبيُّ ﷺ دينًا في قوله: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**»؛ لذلك ينبغي الحذر من اتِّباع سُبُل الهوى، والتماس حظوظ النَّفس.

ثانيًا: تطهير القلب من الغلِّ والغشِّ في مناصحة أئمَّة المسلمين، فيحبُّ لهم ما يحبُّ لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه؛ لأنَّ النَّصيحة منافية للغلِّ والغشِّ ولا تجامعهما بحال، وقد أخبر النَّبيُّ ﷺ عن ذلك بقوله: «**ثَلاَثٌ لاَ يَغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ المُؤْمِنِ: إِخْلاَصُ العَمَلِ لله، وَالنَّصِيحَةُ لِوَلِيِّ الأَمْرِ** ـ وفي لفظ: **طَاعَةُ ذَوِي الأَمْرِ** ـ **وَلُزُومُ الجَمَاعَةِ، فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ**»[28]، ذلك لأنَّ هذه الثَّلاث تنفي الغلَّ والغشَّ ومفسدات القلب وسخائمَه كما شرح ذلك ابن القيِّم رحمه الله[29].

ثالثًا: التَّأكُّد من وقوعهم في مخالفة أو منكر قضت به النُّصوص الشَّرعيَّة، أو دلَّت على حكمه الأصول الشَّرعية، فإن تَثَبَّتَ من حقيقة المخالفة أو عين المنكر وعرف مرادهم فيه؛ نظر إلى سيرتهم في حكمهم ودعوتهم، فإنْ كانت حسنة حمل كلامهم على الوجه الحسن؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ [الأعراف: 58]، وإن كانت سيرتهم غير ذلك حمل كلامهم على الوجه السَّيِّء؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف: 58].

أمَّا إذا عرف مراد كلامهم؛ ولكنَّه جهل حكم الشَّرع فيه، فالواجب أن لا يتدخَّل بنصيحة غير مصطبغة بالحقِّ؛ ذلك لأنَّ العلم ما قام عليه الدَّليل وشهد له البرهان وأيَّدته الحُجَّة.

رابعًا: ومن وجوه النَّصيحة لأئمَّة المسلمين:

1. محبَّة صلاحهم ورشدهم وعدلهم وما يحملونه من علم وتقوى، ومحبَّةُ اجتماع الأُمَّة عليهم وكراهةُ افتراق الأُمَّة عليهم، والتَّعاونُ معهم على الحقِّ وطاعتُهم فيه، والدُّعاءُ لهم بالثَّبات والتَّقوى والصَّلاح والتَّوفيق والسَّداد.

2 ـ تصديقهم بما يروونه من الأحاديث وما أدلَوْا به من الآراء والأقوال النَّابعة من الاجتهاد المبنيِّ على مصادر التَّشريع ومداركه ما داموا وعاةً للعلم وأهلاً للثِّقة.

وبناءً عليه؛ فليس من حقِّ النَّاصح بالضَّرورة أن يجد صَدًى إيجابيًّا لنصيحته، فإن تضمَّنت نصيحتُه حكمًا عقديًّا ثابتًا عند أهل السُّنَّة والجماعة، أو حكمًا شرعيًّا مُجْمَعًا عليه، أو حكمًا راجحًا مؤيَّدًا بقوَّة الأدلَّة؛ فإنَّه يحمد الله على توفيقه لقَبولهم نصيحتَه ويتعاون معهم عليها، وإن كانت الأخرى فعزاؤه أنَّه أدَّى الواجب نحوهم، ولا يتعاون معهم فيما خالفوا فيه الحقَّ، إذ «**لاَ طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الخَالِقِ**»، ويدعو لهم بالهداية والسَّداد.

أمَّا إذا كانت نصيحته خاوية ممَّا سبق تقريره؛ فلا يتحامل عليهم إذا تركوا العمل بنصيحته لاحتمال عدم تضمُّنها ـ في نظرهم ـ فقهًا سليمًا أو حكمًا وجب الأخذ به، أو كانت النَّصيحة خارجةً عن الموضوع الَّذي قرَّروه فتقع على غير وجهها ومرماها، أو ألزمهم بمقتضى حديث لم يعملوا به لعلَّة ضعفه عندهم أو العكس، أو تركوا العمل بها بما لا مبلغ له من العلم ونحو ذلك، فلا تُرْفَعُ إليهم نصيحة حكمُ مضمونها منسوخ أو مرجوح أو مردود بالنُّصوص الشَّرعيَّة أو مدفوع بالإجماع أو تمثَّلت النَّصيحة في قول

(28) أخرجه التِّرمذي (2658)، من حديث عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه، وأخرجه أحمد (3/225)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، والحديث صحَّحه الألباني في «السِّلسلة الصَّحيحة» (1/760).

(29) «مفتاح دار السَّعادة» لابن القيِّم (1/277، 278).

مخالف للقياس والمصلحة والاعتبار.

3. تذكيرُهم بالمسئوليَّة الملقاة على عاتقهم، وتعريفُهم بالأخطاء والمخالفات الَّتي وقعوا فيها برفق وحكمة ولطف، ووعظُهم سرًّا من غير هتك ولا تعيير، ويتمُّ ذلك إمَّا عن طريق خطاب سرِّيٍّ مرسل إليهم عبر البريد الخاصِّ أو الإلكتروني، وإمَّا بتسليمه يدويًّا من قبل ثقة، أو بطلب لقاء أخويٍّ يُسرُّ إليهم فيه بالنَّصيحة، ونحو ذلك من أسباب حصول الانتفاع بالنَّصيحة في مجال الدَّعوة والتَّعليم والإعلام.

قال ابن رجب رحمه الله:

«وكان السَّلف إذا أرادوا نصيحة أحد وعظوه سرًّا، حتَّى قال بعضهم: من وعظ أخاه فيما بينه وبينه فهي نصيحة، ومن وعظه على رؤوس النَّاس فإنَّما وبَّخه، وقال الفضيل بن عياض رحمه الله: «المؤمن يستر وينصح، والفاجر يهتك ويعيِّر»، قال عبد العزيز بن أبي رواد: «كان من كان قبلكم إذا رأى الرَّجل من أخيه شيئًا يأمره في رفق فيؤجر في أمره ونهيه، وإنَّ أحد هؤلاء يخرق بصاحبه فيستغضب أخاه ويهتك ستره»، وسئل ابن عبَّاس رضي الله عنهما عن أمر السُّلطان بالمعروف ونهيه عن المنكر، فقال: «إن كنت فاعلاً ولابدَّ ففيما بينك وبينه»][30].

والمعلوم أنَّ شبكات الأنترنت والصُّحف والمجلَّات وغيرها ما هي إلاَّ وسائلُ موضوعةٌ ابتداءً للإعلام والتَّشهير والتَّبليغ، الأمر الَّذي يقضي بمنافاتها للنَّصيحة في قالبها السِّرِّي والأخلاقي.

4. صيانة اللِّسان عن ذمِّهم وتجريحهم وإهانتهم، والامتناع عن سبِّهم ولعنهم، والتَّشهير بعيوبهم ومساوئهم؛ لأنَّ ذلك يوجب عداوتهم والحطَّ من قدرهم والانتقاص من شأنهم، وفتحُ مجال الإغارة عليهم بالقدح والطَّعن يُفقِدُهم الهيبة ويجعلهم محلَّ التُّهمة؛ الأمرُ الَّذي يُخْشى من ورائه ضياع الأمَّة شريعةً وأمنًا، إذ في اتِّهام العلماء في أقوالهم ومعارفهم تضييعٌ للشَّريعة لكونهم أهل الإرشاد والدَّلالة، وفي فقد الثِّقة في الأمراء والحكَّام تضييعٌ للأمن والاستقرار.

قال ابن رجب رحمه الله:
«وكان السَّلف إذا أرادوا نصيحة أحدٍ وعظوه سرًّا»

وضمن هذا المعنى يقول الشَّيخ ابن عثيمين رحمه الله:

«مِنَ الخطإ الفاحش ما يقوم به بعض النَّاس من الكلام على العلماء أو على الأمراء، فيملأ قلوب النَّاس عليهم بُغضًا وحقدًا، وإذا رأى شيئًا من هؤلاء يرى أنَّه مُنكر؛ فالواجب النَّصيحة وليس الواجب عليه إفشاء هذا المنكر أو هذه المخالفة، ونحن لا نشكُّ أنَّه يوجد خطأ من العلماء، ويوجد خطأ من الأمراء، سواء كان متعمَّدًا أو غير متعمَّد، لكن ليس دواء المرض بإحداث مرض أعظمَ منه، ولا زوال الشَّرِّ بشَرٍّ أَشَرَّ منه أبدًا، ولم يضرَّ الأمَّة الإسلاميَّة إلاَّ كلامُها في علمائها وأمرائها، وإلاَّ فما الَّذي أوجب قتل عثمان؟ هو الكلام فيه، تكلَّموا فيه، وأنَّه يحابي أقاربه وأنَّه يفعل كذا ويفعل كذا، فحملت النَّاسُ في قلوبها عليه، ثمَّ تولَّد من هذا الحمل كراهة وبغضاء وأهواء وعداء، حتَّى وصل الأمر إلى أن قتلوه في بيته، وتفرَّقت الأمَّة بعد ذلك، وما الَّذي أوجب قتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب إلاَّ هذا؟ خرجوا عليه وقالوا: إنَّه خالف الشَّرع وكفَّروه، وكفَّروا المسلمين معه، وحصل ما حصل من الشرِّ...

وأرى أنَّه يجب الكفُّ عن نشر مساوئ النَّاس ولاسيما العلماء والأمراء وأنَّه يجب إصلاح الخطإ بقدر الإمكان»[31].

وأخيرًا؛

أختم هذا الجواب بما ذكره ابن دقيق العيد رحمه الله حيث قال:

«وأمَّا النَّصيحة لأئمَّة المسلمين: فمعاونتُهم على الحقِّ وطاعتُهم وأمرُهم به، وتنبيهُهم وتذكيرُهم برفق ولطف، وإعلامُهم بما غفلوا عنه، وتبليغُهم من حقوق المسلمين، وتركُ الخروج عليهم بالسَّيف، وتأليفُ قلوب النَّاس لطاعتهم والصَّلاة خلفهم، والجهادُ معهم وأن يَدْعُوَ لهم بالصَّلاح»[32].

والعلمُ عند الله تعالى.

* * *

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين، وصَلَّى الله على نبيِّنا محمَّد، وعلى آله وصحبه وإخوانه إلى يوم الدين، وسَلَّم تسليمًا.



(30) «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (77).

(31) «لقاء الباب المفتوح» لابن العثيمين (10/32).

(32) «شرح الأربعين النَّوويَّة» لابن دقيق العيد (53).

الشيخ أبو القاسم ابن حلوش المستغانمي

(1368هـ - 1949م)

سمير سمراد ■ إمام خطيب - الجزائر

هو العالم المصلح، والفقيه السَّلفيُّ: أبو القاسم بن أحمد بن حُلُوش المستغانمي؛ ولد في عائلة علميَّة فاضلة سنة (1881م) بمستغانم[1].

تعريفٌ بمدينة مستغانم

ومستغانم - كما يصفها المؤرِّخ أحمد توفيق المدني سنة (1350هـ) في «كتاب الجزائر» (ص237 - 238) -: «من أكبر المدن في النَّاحية الغربيَّة الجزائريَّة، ابتدأ تخطيطها المرابط يوسف بن تاشفين حيث ابتنى مركزًا حربيًّا يدعى «برج الامحال» جمع محلة، وهي الفرقة الجنديَّة، بمكان كان يُدعى «مشتى غانم»، ثمَّ نما العمران حول ذلك البرج؛ وازدهرت المدينة تحت حكم بني زيان وبني مرين؛ وشيَّد فيها أبو الحسن المريني مسجدها الكبير سنة 1340م...، احتلَّتها القوَّات الفرنسيَّة في جويلية (1833)، قال: «والمدينة تشمل حارة أوروبيَّة منتظمة وحارة عربيَّة تدعى تاجديت»، ليقول: «ومسلمو مستغانم على جانب عظيم من الفضل والصَّلاح، وإن كانت نهضتهم إلى اليوم لم تصل إلى المركز اللاَّئق بهم» اهـ.

نشأته وتعلمه وتعليمه

يقول محمَّد الحسن فضلاء: «حفظ القرآن الكريم وأتقنه وجوَّدهُ على أئمَّة زاويتهم الَّتي أنشئت خصِّيصًا لقراءة القرآن، وتلقَّى مبادئ العلوم، في حي «تاجديت»، وحين أتمَّ مرحلة قراءة القرآن؛ عكف على الدُّروس

يقول محمَّد الحسن:

«واشتهر الشَّيخ أبو القاسم بن حلوش بلقب العالم المتفتِّح، والمصلح السَّلفيِّ فحفظه الله من الغرق في مستنقع الشَّعوذة والدَّجل والبدع، كما غرق فيه أترابه ولِدَاتُه، ولم يقف موقفًا سلبيًّا بإزائهم، بل كان يُجاهرُ بالحقِّ، ويُحارب البدع والخرافات، وقد لحقته من الطُّرقيِّين وأنصارهم، ومن أهل البدع وأشياعهم إذايات مختلفة، ولكنَّهُ ظلَّ صامدًا على فكرته الإصلاحيَّة السَّلفيَّة، فما وهن لما أصابهُ في سبيل الله وما ضعف وما استكان» اهـ.



(1) «من أعلام الإصلاح في الجزائر» (1/102 - 105) لمحمَّد الحسن فضلاء.

العلميَّة، فتتلمذ على علماء وفقهاء عصره الَّذين كانت مدينة مستغانم تعجُّ بهم، فلم يتوقَّف عن الأخذ منهم حتَّى أدرك مشايخُهُ أنَّه على أتمِّ الاستعداد لمباشرة التَّعليم، فأذنوا لهُ بالتَّدريس لما يتمتَّع به من خبرة ونجابة وذكاء وفَهْم، فأصبح بدوره يستقبلُ الطَّلبة في زاويتهم ويُشرفُ على تعليمهم ورعايتهم» اهـ.

انتصابُهُ لنشر العلم ببلدته «مستغانم»

أدرك الشَّيخ أبو القاسم مثل غيره من العلماء النَّابهين، وأولي العزم من المصلحين، أنَّه لا سبيل للأمَّة للخلاص من محنتها، والخروج من تيهها، إلاَّ بالعلم، فهو الَّذي يهديها، وهو -لا سواهُ- مُجلِّي ظُلْمتها، وكاشفُ غَبْنها! لذا نهض الشَّيخ أبو القاسم بأعباء هذا الواجب، وتصدَّى للتَّدريس والوعظ والإرشاد في مسجده، في حيِّ: «تاجديت»، وهذا مُكاتِبٌ لإحدى جرائد الوقت؛ وهي جريدة «**البلاغ الجزائري**»، الَّتي كان يُصدرها أتباع الطَّريقة العليويَّة بمستغانم، يقول في [العدد (155)، الجمعة 29 رمضان 1348هـ، 28 فيفري 1930م، (ص3)]، تحت عنوان: «جولة نائبنا في الأنحاء الوهرانيَّة»:

«...**إلى محروسة مستغانم... وفي مدَّة إقامتي اجتمعت كذلك بالفقيه الورع الشَّيخ بلقاسم ابن الحلوش فوجدته حاذقًا لبيبًا فقيهًا ورعًا جامعًا بين شريعة وحقيقة**[2] **فقضينا معه سويعات آنسنا منه فيها لطفًا وأخلاقًا كريمة**...» اهـ.

وهذا مكاتبٌ آخر للجريدة نفسها [العدد (175)، 5 ربيع الأول 1349هـ/ 01 أوت 1930م، (ص2)]، يتحدَّثُ عن النَّاحية العلميَّة في الوطن الجزائري، يقولُ عن: «مستغانم»: «أمَّا الدُّروس العلميَّة فهي شبيهة بالمدارس العربيَّة في الوجود [يعني: في القلَّة!] ولولا فضيلة الشَّيخ المفتي سيدي عبد القادر بن قارة مصطفى **والشَّيخ سيدي بلقاسم بن الحلوش الإمام بجامع سيدي السَّائح**، لَمَا رأيتَ في مستغانم شخصين يجتمعان على مسألة علميَّة...» اهـ.

إعجابُهُ بنهضة الشَّيخ ابن باديس العلميّة والدِّينيّة

لقد أعجب الشَّيخ أبو القاسم بن حلوش بنهضة الشَّيخ المدرِّس الأكبر وباعث النَّهضة الدِّينيَّة والعلميَّة في الوطن الجزائري: الشَّيخ ابن باديس، فكان من المحبِّذين لها، والمدافعين عنها، والمستبْشرين بنجاحها، والمؤمِّلينَ لاكتساحها الموروثات البدعيَّة، واحتضانها من قِبَل البيوتات الجزائريَّة، وهكذا كان الشَّيخ أبو القاسم من أوائل الدَّاعين إليها، والعاملين لازدهارها وانتشارها، فبعث بابنه الشَّيخ مصطفى (وُلد سنة1907م) إلى قسنطينة، ليأوي إلى عرين الأسد، ويستمدَّ من قوَّته، ويكونَ جنديًّا من جنودِ الإصلاح، فانتقلَ الابنُ مصطفى إلى «**الجامع الأخضر**»، سنة (1926م) (1345هـ)، بعد أن تلقَّى مبادئ العلوم الأوليَّة على يد والده؛ واستوعب الدُّروس الَّتي كان يُلقيها على طلبته في الفقه واللُّغة وأنواع المعارف الأخرى[3].

يقولُ الشَّيخ مصطفى: «**وبناءً عن رغبته في العلم والمعرفة أرسلني سنة (1926) إلى قسنطينة للتلقِّي... [عن] شيخنا الأستاذ عبد الحميد ابن باديس**» اهـ[4]، وبعد أن لزمه نحوًا من سنة، قال: «أشار عليَّ بالذَّهاب إلى تونس للالتحاق بجامع الزَّيتونة لاستكمال معلوماتي»، بقي بتونس إلى آخر سنة (1930)، حيث رجع إلى مسقط رأسه «مستغانم»، ليُعين والدهُ ويشُدَّ عضُدَهُ في خدمة العلم ونشره، وتبليغ الدِّين الصَّحيح، مع ما هو معروفٌ في ذاك الزَّمان من عَنَت الإدارة الاستعماريَّة الغاشمة، وجهل الأمَّة، وكثرة الدَّجاجلة.

وهذه جريدة «**البلاغ الجزائري**»، تهنِّئُ الشَّيخ أبا القاسم بنبوغ ابنه الشَّيخ مصطفى، وظهوره كاتبًا مُجيدًا؛ جاء في [العدد (99)، مستغانم، يوم الجمعة 7 رجب 1347هـ، 21 ديسمبر 1928، (ص3)]:

«**مستغانم**: يقول المكاتب: إنَّنا وقفنا على ما نشرته مجلَّة «الشِّهاب» الغرَّاء من مقال افتتاحي لأحد الشُّبَّان المستغانميِّين وهو الأخ النَّجيب السَّيِّد مصطفى ابن حلوش **نجل الشَّيخ السَّيِّد بلقاسم ابن حلوش المدرس بجامع سيدي عبد الإله بقرية «تجديت»** الموجود(؟) بحاضرة تونس لتحصيل العلم وتهذيب النَّفس على الوجه المطلوب... وقد سررنا أيَّما سرور بهاته الخطوة الَّتي تقدَّمها في ظرف مدَّة وجيزة، فلمثل ذلك فليعمل العاملون. **وإنَّنا من صميم القلب نهنِّي والده الَّذي أعانه على مراده من العلم** واكتساب الأخلاق الفاضلة بهاته الرُّتبة العلميَّة الَّتي قلَّت أفرادها في أبناء الأمَّة الجزائريَّة وعلى الخصوص مستغانم أيقظها اللَّه من سباتها المميت وحشرها لحياة جديدة بالعلم والعمل الصَّالح والموتى يبعثهم اللَّه» اهـ.

في مجلس إدارة «جمعيَّة العلماء المسلمين الجزائريين»

ظهرت للوجود «جمعيَّة العلماء المسلمين الجزائريين» سنة (1931م)، والمصلحون

(2) هذا التَّعبيرُ منْ مُحدثات المُتصوِّفة، وقدْ توصَّلُوا بهذه القِسْمةِ! إلى مُنكرٍ من القول، وفاسدٍ من العمل.

(3) «من أعلام الإصلاح في الجزائر» (1/244 . 248) لمحمد الحسن فضلاء.

(4) «من أعلام الإصلاح في الجزائر» (1/245) لمحمد الحسن فضلاء.

هم الَّذين فكَّروا فيها، وعملوا على إنشائها، وسطَّروا لها برنامجًا إصلاحيًّا عامًّا شاملاً، ومن أوَّليَّاته: شنُّ حملة جارفة على الباطل والمبطلين، وعلى الخرافات والبدع الَّتي طال أمدُها بسكوت العلماء - من جهة -، وبدفاع أشباه العلماء والمُسخَّرين والطَّمَّاعين، عن أعمال العامَّة والجاهلين - من جهة أخرى -.

لم يتردَّد الشَّيخ أبو القاسم بن حَلُوش في الانضمام إلى هذه الجمعيَّة، والقبول بالعُضويَّة في مجلس إدارتها، فكان من ضمن مؤسِّسيها، وعُضوًا إداريًّا فاعلاً فيها، يشدُّ عضُدَ إخوانه العلماء المصلحين، لا سيَّما الرَّئيس: الشَّيخ ابنُ باديس.

وقد عمل مجلس إدارة الجمعيَّة على تأسيس شُعب في المدن، تنشر دعوة الجمعيَّة، وتُذلِّل الصِّعابَ الَّتي تعترضُ طريقها، وتحولُ بين دعوتها الإصلاحيَّة، وبلوغها إلى النَّاس، ودخولها البيوتات الجزائريَّة، وهكذا تأسَّست شُعبة للجمعيَّة في مدينة «مستغانم»، برئاسة الشَّيخ أبي القاسم ابن حلوش، واختار لها من رجالات «مستغانم»، «أشدهم إسلامًا، وأقواهم إيمانًا وأصلبهم على نصرة الحقِّ ودحض الباطل»[5].

ولمَّا نال الكِبَرُ من الشَّيخ أبي القاسم ما نال، ورأى في ابنه؛ الشَّيخ مصطفى، من العلم والكفاءة، والقوَّة والأمانة، ما يسُدُّ مسدَّهُ في مجلس إدارة الجمعيَّة، أنابهُ عنهُ، وفسح لهُ المجال، ليحلَّ محلَّهُ، وهكذا تفرَّغ الشَّيخُ أبو القاسم: «للتَّدريس والدَّعوة ولشؤون أخرى تقتضيها رسالةُ «جمعيَّة العلماء»، من نشر الفضيلة، ومحاربة الرَّذيلة، وما علق بدين الله من التُّرَّهات والبدع والخرافات والأباطيل»[6].

وهذا خبرُ اعتذار الشَّيخ أبي القاسم عن حضور اجتماعات مجلس إدارة الجمعيَّة، كما تلاهُ الرَّئيسُ ابنُ باديس:

ففي المؤتمر السَّنوي العام للجمعيَّة، الَّذي انعقد بعاصمة الجزائر، في صباح يوم السَّبت 20 رجب 1356هـ، 25 سبتنمبر 1937م، **شكَّلوا الإدارة الجديدة،** فكان: مصطفى ابن حلوش، في جملة: **الأعضاء المستشارين**[7]، وجاء في التَّقرير المنشور بمجلَّة «الشِّهاب»: «**ثمَّ اعتذر [الرَّئيس: ابن باديس] عن تخلف... الشَّيخ بلقاسم ابن حلوش [عن التحاقه بالجمعيَّة] لكِبَرِ سنِّه...**» اهـ.

رئيس جمعية العلماء في ضيافة ابن حَلُوش (1350هـ/1931م)

عقد الشَّيخ ابن باديس رئيس جمعيَّة العلماء رحلة من العاصمة (الجزائر) إلى وهران فما بينهما من البلدان، وذلك للتَّعريف (بجمعيَّة العلماء ومقاصدها ومنافع الأمَّة منها»[8]، وكتب ابن باديس عن هذه الرِّحلة بقلمه، فممَّا قال عن: «**مستغانم: قصدنا من المحطَّة إلى مسجد الأخ الشَّيخ بلقاسم بن حلوش، لما بيننا من سابق المعرفة بالمكاتبة وروابط المودة المتأكِّدة، ولأنَّ ابنه الشَّيخ مصطفى أحدُ مريدينا ومن أعزِّهم علينا، فتلقَّيانا بالحفاوة والسُّرور الزَّائدين، وأنزلنا على الرَّحب والسَّعة**، ومن غده دعا للعشاء معنا أعيان البلد، منهم فضيلة الشَّيخ المفتي سيدي عبد القادر بن قارة مصطفى وسماحة الشَّيخ سيدي أحمد بن عليوة شيخ الطَّريقة المشهورة، وكان هذا أوَّل تعرفنا بحضرتهما فكان اجتماعًا حافلاً بعدد كثير من النَّاس، ولمَّا انتهينا من العشاء ألقيت موعظة في المحبَّة والأخوة ولزوم التَّعاون والتَّفاهم على أساسهما... **وذكرنا الدَّواء الَّذي يُقلِّلُ من الاختلاف ويعصم من الافتراق، وهو تحكيم الصَّريح من كتاب الله والصَّحيح من سنَّة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم،** فاستحسن الشُّيوخ الحاضرون ذلك وحلَّ من الجميع محلَّ القبول... وأهل مستغانم أهل ذكاء وحسن نيَّة وإقبال على العلم... »[9].

قلتُ: قد قيل الكثير عن تأسيس الجمعيَّة، الَّتي جمعت بين المتضادين أوَّل مرَّة؛ فقد تكوَّنت من المصلحين ومن الطُّرقيِّين ومن الحكوميين! وقيل الكثير عن رحلات ابن باديس بصفته رئيسًا لهذه الجمعية (ومنها رحلته إلى الغرب الجزائري) وعن خطاباته فيها عند ملاقاة شيوخ الطُّرق ورؤساء الزَّوايا وغيرهم! ولعلَّ من أحسن الأجوبة عن كُلِّ ذلك، ما ذكره المؤرِّخ محمَّد القورصو حيثُ قال عن أهداف ابن باديس:

«استهدف إدخال الأفكار الإصلاحيَّة في هذا الجزء من الوطن عن طريق التَّعريف بالجمعيَّة وإطلاع المواطنين الجزائريِّين على ما تمَّ في شهر ماي عام 1931م بـ«نادي التَّرقِّي»، ولم يكن في الإمكان آنذاك إعطاء أهداف أخرى لهذه الرِّحلة نظرًا لحداثة الجمعيَّة ونوعيَّة تشكيلة مكتبها والَّذي ضمَّ عناصر من الطُّرقيِّين، الأمر الَّذي دفع بابن باديس أن يمدَّ يده نحو زعماء الزَّوايا وأئمَّة المساجد الرَّسميَّة في هذه المنطقة... هادفًا إلى فتح الزَّوايا والمساجد للفكر الإصلاحي وكسب عناصرها المتنورة والأقل تعصبًا»[10]، ليقول أيضًا عن «**حقيقة الصِّراع بين العلماء والطُّرقيِّين**»:

---

(5) «من أعلام الإصلاح في الجزائر» (1/102 - 105) لمحمد الحسن فضلاء.

(6) «من أعلام الإصلاح في الجزائر» (1/102 - 105) لمحمَّد الحسن فضلاء.

(7) «الشهاب»، جزء: شعبان 1356هـ/ أكتوبر 1937م، ج8، م13، (ص347 - 348).

(8) «آثار الإمام ابن باديس» (4/243).

(9) «آثار الإمام ابن باديس» (4/246 - 247)، أو: «الشهاب»، ج12، م7، غرة شعبان 1350هـ/ ديسمبر 1931م.

(10) «تأسيس ونشاط جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في عمالة وهران: 1931 - 1935»، تقديم: محمد القورصو (ص25).

«إنَّ الوحدة الَّتي اتَّصف بها المكتب الأوَّل لجمعيَّة العلماء، والَّتي تغنى بها البعض لم تقُمْ على أُسُسٍ سليمة وواضحة، فكيف يمكن لجمعيَّة تأسَّست لمحاربة الآفات الاجتماعيَّة والخرافات والبدع، والشَّعوذة، وغيرها من الأمراض الاجتماعيَّة أن تضمَّ في صفوفها أولئك الَّذين تسبَّبُوا في هذه الأوبئة؟ فمآل مثل هذه الأحلاف إمَّا الجمود والموت، وإمَّا الشِّقاق، ذلك أنَّه لا يمكن التَّوفيق بين السَّيِّئ ونقيضه، فالعلاقة يجب أن تكون حتمًا علاقة صراع، هذا هو الجدل الَّذي يفرض نفسه في مثل هذه الحالات، وإذا فقدت هذه العلاقة الجدليَّة انعدم الإصلاح من كلِّ روح تبعث فيه الحياة والحركيَّة الَّتي على أساسها قام العلماء.

فانطلاقًا من هذا المنطق يمكن أن نخْلص إلى أنَّ الوحدة الَّتي اتَّصفت بها جمعيَّة العلماء في (1931) كانت اصطناعيَّة؛ نظرًا لطبيعة الخلاف الأساسي القائم بين العلماء وخصومهم من الطُّرقيِّين، والَّذي يقتضي توضيح الموقف ونبذ كلِّ فكر انتهازي يرمي إلى إخفاء التَّناقضات الدَّاخليَّة، فالصِّراع بين الطَّرفين حتميَّة تاريخيَّة دام إخفاؤه سنة كاملةً إلاَّ أنَّه أصبح حقيقة ملموسةً عند شروع العلماء في تطبيق برنامج جمعيتهم» اهـ[11].

قلتُ: خرج الطُّرقيُّون ورؤساء الزَّوايا من الجمعيَّة، وناصبوها العداء، وأطلقوا ألسنتهم في ثَلْبِ العلماء، ورمي المصلحين بالإفساد! ورمي جمعيَّتهم بأنَّها تعملُ على زرع الفُرقة وتمزيق الوحدة، لذلك وضعوا شروطًا للصُّلح معهم، كانَ في أوَّلِيَّاتها: السُّكوت عنهم وعن عوائد النَّاس! والكفُّ عن التَّعرُّضِ لهم!!...

■ ■ ■

(11) «تأسيس ونشاط جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في عمالة وهران 1931 . 1935»، تقديم: محمد القورصو (ص98).

مذهبُهُ الإصلاحيّ وبلاؤُهُ في سبيلِ نشْرِهِ

يقول محمَّد الحسن:

«واشتهر الشَّيخ أبو القاسم بن حلوش بلقب العالم المتفتِّح، والمصلح السَّلفيّ فحفظه الله من الغرق في مستنقع الشَّعوذة والدَّجل والبدع، كما غرق فيه أترابه ولِدَاتُهُ، ولم يقف موقفًا سلبيًّا بإزائهم، بل كان يُجاهرُ بالحقِّ، ويُحارب البدع والخرافات، وقد لحقته من الطُّرقيِّين وأنصارِهِم، ومن أهل البدع وأشياعهم إذايات مختلفة، ولكنَّهُ ظلَّ صامدًا على فكرته الإصلاحيَّة السَّلفيَّة، فما وهن لما أصابهُ في سبيل الله وما ضعف وما استكان» اهـ.

«مستغانم»، بين دُعاة السُّنَّة وحُماة البدعة!

هذه مراسلة إلى جريدة «البصائر»، بإمضاء مُسْتَتِرٍ تحت اسم: «مسلم»، نُشرت في [العدد (25)، 6 ربيع الثَّاني 1355هـ/ 26 جوان 1936م، (ص7)] تحت عنوان: «**مراسلات: فتنة عليويَّة يعضدها مفتي مستغانم**»، تُصوِّرُ لنا جانبًا من الصِّراع الَّذي كان قائمًا في «مستغانم» - كغيرها من البلدان - بين السُّنِّيِّين السَّلفيين، فيما يُؤَمِّلُونَهُ من الرُّجوع بالنَّاس إلى هداية القرآن والسُّنَّة الصَّحيحة وعمل السَّلف الصَّالح؛ أهلِ القرون الثَّلاثة المشهودِ لهم بالخيريَّة على لسان خير البريَّة (ﷺ)، وبين القوم البدعِيِّين والخرافيِّين، في نضالهم عن موروثات بدعهم، ومُحدثات الخلف، الَّذين هُمْ لهُمْ سلف! ورثوها عنهم، وقد أجمعوا كيْدَهم، وصاحُوا في قومهم: أنْ لا يصدَّنَّكُمُ المصلحون عنها، ويُبدِّلُوا دينكم الَّذي وجدتم عليه آباءكم وأجدادكم ومشايخكم!!

قال: «أكتب لكم هذه الكلمات وعيناي تذرفان الدَّمع دماء وقلبي يتحرق حزنًا وألمًا، لما أصاب الحقَّ والدِّين يوم الأحد 7 جوان من هذه السنة [1936م].

توفي المرحوم السَّيِّد الحبيب بن زازة وكان موعد تشييع جنازته بعد ظهر اليوم المذكور، ولما حضر النَّاس للتَّشييع خرج عليهم أحد أولاد المتوفَّى هو السَّيِّد محمَّد ونادى بأعلى صوته:

أيُّها النَّاس! إنَّ جنازة والدي رحمه الله ستشيع على مقتضى سنَّة رسول الله (ﷺ) وسنَّة السَّلف الصَّالح الَّتي هي الصَّمت التَّام للتَّفكُّر والاعتبار؛ فساعدوني على إحياء هذه السُّنَّة، يرحمكم الله!

وما سمع هذا النِّداء أعداء السُّنَّة والنِّظام وأنصار البدعة والهمجيَّة، حتَّى ثار ثائرهم وانبعث أشقاهم أحمد أخو محمَّد المذكور وقال لأخيه:

«لا تشيع جنازة والدنا إلاَّ بعادة آبائنا وأجدادنا».

فتصلَّب محمَّد وتشدَّد فقابل أحمد شدَّة أخيه وصلابته بالاعتداء عليه بالضَّرب فردَّ عليه محمَّد بالمثل.

وكان الشَّيخ بلقاسم بن حلوش هناك فدفعته شهامته للتَّدخُّل بين الأخوين للحجز بينهما فأصابته ضربة خفيفة عن قصد أو غير قصد من يد نصير البدعة أحمد.

أمَّا الشَّيخ بلقاسم فقد رجع لبيته ولم

يشهد الجنازة.

وأمَّا العليويون فقد كانوا ينتظرون متى يقومون بوظيفهم الَّذي يشبه تمامًا وظيف «العدَّادات» في المآتم و«المدَّاحات» في الأفراح.

وقد علم النَّاس أنَّ هذه الفتنة مدبَّرة منهم (العليويين) وتأكَّدوا بعد أن وصلت الجنازة للمصلَّى إذ قدموا للصَّلاة عليها شخصًا يرضونه ممَّن يعيشون على الموت والقراءة على القبور؛ فعارضهم نصير السُّنَّة السَّيِّد محمَّد ابن الفقيد قائلا: أنا وليُّ الجنازة أقدِّم للصَّلاة عليها من أرضاه لا من ترضونه ولا أرضاه! ودفع مقدَّمهم عن الجنازة.

وهنا عظمت الفتنة إذ ثارت ثائرتهم فانهالوا على محمَّد يضربونه حتَّى أدْمَوه وحتَّى أغمي عليه من شدَّة المقاومة وكان المبتدعون يضربون ويصيحون: موتوا على لا إله إلا الله! «الله أكبر! كلمة حقٍّ أريد بها باطل والتَّاريخ يعيد نفسه!» ومن المؤسف المحزن أنَّهم استعانوا عليه ببعض أقاربه وبعض بني عمِّه ولو كانوا رجالاً لما تركوا ابن عمهم لأيدي الظَّالمين تناله بالضَّرب والإهانة!

ولم يقتصر اعتداء المبتدعين على نصير السُّنَّة محمَّد، بل اعتدوا على كلِّ من تدخَّل لإطفاء الفتنة وتهدئة النُّفوس الثَّائرة.

وقد بلغني من مصدر وثيق أنَّ العليويِّين اجتمعوا وقالوا: لئن فشلنا هذه المرَّة كالمرَّات السَّابقة فسيذهب رقصنا وخلوتنا وإنشادنا قصائد الشَّيخ خلف الجنائز وجميع بدعنا ومناكرنا ضحيَّة هذا التَّيَّار الإصلاحي الجارف الَّذي يستمدُّ قوَّته من القرآن ومن السُّنَّة والَّذي نبَّه الأمَّة و«فَيَّقها بنا» فقطعت عنَّا الزِّيارة وهجرت الخلوة! ثمَّ أقسموا بالله جهد أيمانهم ـ حنثت يمينهم ـ ليقاومنَّ كل جنازة تشيع بالصَّمت...

وفي مساء ذلك اليوم **جاء السَّيِّد محمَّد السَّلفي لبيت الشَّيخ بلقاسم** يبكي ويشكو ما أصابه من المبتدعين ويقسم بأنه لا يألو ـ إن شاء الله ـ في نصر السُّنَّة وإحيائها ما دام فيه عرق ينبض، **فشجَّعَهُ الشَّيخُ وذَكَّرَهُ بما أصاب سيِّدَ الخلق محمد ﷺ من جهلة قومه.**

ولما علم بنو عمِّه بوجوده عند الشَّيخ انتهزوا الفرصة وجاءوا بأخيه مستسمحًا معتذرًا بأنَّه لم يفعل ما فعل إلاَّ بوسواس الشَّياطين وتغرير الدَّجَّالين **وطلب المسامحة من أخيه ومن الشَّيخ.**

هذه فتنة العليويِّين حكيتُهَا لكم كما وقعت وللقرَّاء المنصفين حقُّ الملاحظة والتَّعليق عليها، فكيف كان الشَّيخ المفتي يعضِّدها؟ كان يعضِّدها بإجابة كلِّ من يسأله عن بدعة الذِّكر بالجهر عند تشييع الجنازة بأنَّه بدعة مستحسنة أو بأنَّها بدعة لا يضرُّ فعلها ولا تركها... ولولا تدخُّله بالتَّأويل للمبتدعين، والتَّحريش بالمصلحين لما توجهنا إليه بملام، ولا أدخلناه في كلام... » الخ.

ثمَّ عاد الكاتبُ إلى الموضوع مرَّةً أخرى؛ فكتب: «**إلى فضيلة الشَّيخ مفتي مستغانم**»، نُشر في «البصائر» [العدد (28)، 27 ربيع الثَّاني 1355هـ/ 17 جوليت 1936م، (ص6)]، بيَّن فيه تعرُّض المفتي (الطرقيِّ)! لجمعيَّة العلماء بالطَّعن والنَّيل منها واتِّهام رجالها بالزَّيغ والإلحاد!... إلخ.

■ ■ ■

إدخالُهُ إصلاحاتٍ إلى زاويته العلميَّة، وآمالُهُ فيها

غيَّر الشَّيخ أبو القاسم هيكل الزَّاوية الَّتي كان يُشرفُ عليها، ويستقبلُ فيها الطَّلبة، فابتنى فيها مسجدًا كبيرًا ونواةً لمدرسة المستقبل الَّتي لم يَحِن بعدُ وقتُ تأسيسها، والَّتي حقَّقها من بعده ابنهُ البرُّ: الشَّيخ مصطفى[12].

وفاتهُ ومشهدُ جنازته

تُوفي الشَّيخ أبو القاسم رحمه الله في (21) من شهر (جانفي) يناير (1949م)، وعمره (68) عامًا، هذا ما ذكره الحسن فضلاء؛ بناءً على تاريخ مولده؟

والَّذي سيأتي في صحيفة «النَّجاح»: (72) عامًا؟ والله أعلم.

نشرت «النَّجاح» [العدد: (3678)، السَّبت 29 ربيع الأوَّل 1368هـ/ 29 جانفي 1949م، (ص2)]، خبر موت الشَّيخ؛ فقالت:

«رُزِئَتْ مستغانم صباح يوم الجمعة 21 ربيع الأوَّل في عالم من علمائها وإمام صالح من صلحائها ألا وهو العلاَّمة الفقيه الشَّيخ بلقاسم ابن حلوش الإمام المدرس الحرّ بمسجد سيدي عبد الإله، ختمت أنفاسه... والتحقت إلى ربِّها... **عن سنٍّ يناهز اثنين وسبعين سنة.**

فكانت وفاته رنة أسف على أهل حاضرة مستغانم وكلِّ من عرفه وعرف الفراغ الَّذي كان يسدُّه وما كان له من الأثر الحسن في

(12) «من أعلام الإصلاح في الجزائر» (1/102 ـ 105 و248) لمحمد الحسن فضلاء.

خدمة الدِّين الحنيف ونشر مبادئه بين المسلمين.

فقد قضى حياته كلّها في تدريس العلم وإرشاد الخلق إلى الحقّ.

وبعد ظهر يوم السَّبت 22 ربيع الأوَّل شيِّعت جنازته في موكب رهيب تعلوه المهابة والوقار، حضرها العدد العديد من أعيان الحاضرة ونواحيها... وشخصيَّات كثيرة من مختلف الجمعيَّات؛ تقديرًا لشخصيَّة فقيد العلم والصَّلاح، وكلّهم متأسِّفون باكون على فراقه لتعظيمهم للفراغ الَّذي كان يسدُّه...

وأخيرًا نرفع تعزيتنا الحارَّة لأبناء الفقيد وأقاربه وتلامذته ومحبِّيه وبالأخصِّ إلى العلاَّمة الجليل صديقنا الشَّيخ مصطفى بن حلوش جعله الله خَلَفًا صالحًا وابنًا بارًّا يسدُّ الفراغ الَّذي كان يعمره أبوه الرَّاحل الكريم.

كما نسأل الله العظيم للفقيد الرَّحمة والمغفرة والرضوان وأن يسكنه في بحبوحة النَّعيم وفسيح الجنان بمنِّه وكرمه إنَّه الرَّحيم الرَّحمن. مكاتبكم» اهـ.

كما نشرت «البصائر» في عددها (67)، تحت عنوان: «رزء جسيم»، مكاتبةً عن جنازة الفقيد، حرَّرها الشَّيخ: «أحمد الشّريف السَّنوسي»[13]، جاء فيها:

«ذلك هو يوم انطفأ به مصباح الأمَّة المستغانميَّة وأفل فيه نجم ثرياها، وغار في ثراها، ألا وهو الشَّيخ أبو القاسم ابن حلوش والد صديقنا العزيز الأستاذ مصطفى، قطعت أنفاسه وزهقت الرُّوح إلى بارئها فجر الجمعة 21 ربيع الأوَّل[14] [1368هـ]...» إلخ.

وقد كتب عنهُ رئيس جمعيَّة العلماء؛ الشَّيخ البشير الإبراهيمي كلمةً مُنْصفةً، نُشرت في «البصائر»[15]، في سلسلتها الثَّانية [العدد (65)، 2 ربيع الثَّاني 1368هـ/ 31 جانفي 1949م، (ص3)]، تحت عنوان: «**موت عالم سلفي مصلح هو الشَّيخ أبو القاسم بن حلوش**»:

«بلغني في أثناء الأسبوع الماضي - وأنا على فراش المرض - خبر بموت العالم العامل المصلح الشَّيخ أبي القاسم ابن حلوش، العضو الإداري السَّابق بجمعيَّة العلماء، ووالد ولدنا الرُّوحي الأديب الكاتب الشَّيخ مصطفى بن حلوش، بداره من ربض «تاجديت» بمستغانم.

أَسِفْتُ لموت الشَّيخ أبي القاسم أعظم ممَّا آسفُ لفقد قريب؛ لأنَّ هذه الطَّائفة الإصلاحيَّة الَّتي كان الشَّيخ أبو القاسم أحد أفرادها إنَّما تتقارب على المشارب، لا على المناسب، وتتصاحب بالأرواح لا بالأبدان.

والشَّيخ أبو القاسم رَحِمَهُ اللهُ مصلح بطبعه وتربيته، **خُلِقَ في منبع من منابع البدع**، وفتح عينيه عليها، فأنكرتها فطرته السَّليمة، وتربيته القويمة من أوَّل أمره، ونشأ على نفور منها وازدراء لأهلها، ولقي منهم تجريحًا وأذًى، ولقوا منه تسفيهًا وإنكارًا، وكان كلُّ ذلك مزيدًا في رفعة شانه.

طلب العلم على فئة من الفقهاء المدارين المجارين للعامَّة في أهوائها، فأخذ ما صلح من علمهم، وهجر ما قبح من أعمالهم، **ووحَّدَ الله وعبده بما شرع، على الوجه الَّذي شرع**.

وابتنى لنفسه مسجدًا من ماله بسوق «تاجديت» يصلِّي فيه بأتباعه في السِّيرة ويلقي عليهم دروسًا في الوعظ والإرشاد، وفيه بدأ ينشر الإصلاح العملي فنبذ البدع اللاَّصقة بالعبادات.

ولم يزل متطَّلعًا إلى العلم الصَّحيح يطلع بدْرُه، متشوِّفًا إلى الحقِّ الصَّريح يَتَبَلَّجُ فجرُه، إلى أن ظهرت بواكير الحركة الإصلاحيَّة العلميَّة في دروس الأستاذ الرَّئيس الشَّيخ عبد الحميد بن باديس، فجهز ولده الشَّيخ مصطفى حلوش لتلك الدروس ليستدرك بأحد أولاده ما فاته في نفسه، وأقرَّ الله عينه ببلوغ مرامه، فكان من ذلك الولد للإصلاح ما يكون من جنديّ من جنوده المخلصين، فشارك بقلمه ولسانه في جميع الميادين.

عاش الشَّيخ أبو القاسم بعد ذلك على سَمْتِ الصَّالحين، يتنعَّم بما يرى من انتصار الحقِّ وأتباعه، وانْدِحار الباطل وأشياعه، إلى أن وافته منيَّتُهُ راضيًا مرضيًّا، فرحمه الله وأثابه جزاء إيمانه واستقامته، وأنا عن نفسي وعن جمعيَّة العلماء ومؤسّساتها أتقدَّم بالتَّعزية إلى ولدنا الشَّيخ مصطفى حلوش وإخوانه وأهل بيته، وإلى جميع أفراد الأسرة بمستغانم وسَبْدُو مشاركًا لهم في الحزن، حاثًّا لهم على الصَّبر، راجيًا لفقيدهم الرَّحمة» اهـ.

(13) هو من قرية (وادي الخير)؛ من قرى مستغانم، عرف بـ: الشيخ أحمد الأطرش، توفي بمدينة وهران، سنة (2003م).

(14) ورد التَّاريخ في صحيفة «البصائر»: (23ربيع الأول)، والصَّوابُ ما هو مُثبتٌ أعلاهُ، والله أعلم.

(15) وهي في: «آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي» (283.282/4).

قدم له وأعده: فؤاد عطا الله

■ ماجستير في العلوم الإسلامية. وادي سوف

شرح منظومة منحة ذي العرش فيما يتعلق بقراءة ورش

تأليف الناظم: شعيب بن إسماعيل الكيالي (ت: 1172 هـ)

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على نبيِّنا محمَّد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإنَّ أحسنَ ما اشتغل به المؤمنون كتاب الله جلَّ وعلا، الَّذي أنزله الله هدىً للمتَّقين، ورحمةً للعالمين، وحجَّةً على الخلق أجمعين، تسعد الأمم بتحكيمه، وتطيب الألسن بترتيله، وتزكو الأنفس بتدبُّر وعده ووعيده، ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [ص: 29].

ولا يزال المُوفَّقون من عباد الله يعتنون بآيات الله سبحانه حفظًا وترتيلاً، وعملاً وتحكيمًا، وتدبُّرًا وتفسيرًا.

وهذه الرِّسالة اللَّطيفة الَّتي بين أيدينا المسمَّاة بـ«**شرح منظومة منحة ذي العرش فيما يتعلَّق برواية ورش**» منظومة بشرحها، عدد أبياتها سبعة عشر، تعالج مسألة من مسائل التَّجويد، كثيرًا ما يتعسَّر فهمُها على المبتدئين، ويصعب تصوُّرُها على بعض القارئين، وهي العلاقة بين مدِّ البدل ومدِّ اللِّين واللَّفظ المُمَال من ذوات الياء عند اجتماعها في موضع واحد، وأثرُ تركُّبها على أحكام التَّجويد.

وقد رام المؤلِّف توضيحَ اللَّبس الحاصل، والغموض الواقع، فجمع ما يتحصَّل للإمام ورش من طريق الشَّاطبيَّة من الأوجه في هذه المسألة.

هذا؛ وقد وُفِّق المصنِّف في الوصول إلى مراده، فجاءت رسالته بمادَّة علميَّة مفيدة، وتقسيم متقن، وتنسيق مناسب، وأسلوب سهل، لم يُخْلِهَا من التَّعريفات الدَّقيقة، والاقتباسات الماتعة من أمَّهات الكتب في علم القراءات.

صورة الورقة الأولى من المخطوط



صورة الورقة الأخيرة من المخطوط



وإن كان يُؤخذ عليه إغفالُ عزوِها إلى أصحابها في بعض المواضع.

ومؤلِّف الرِّسالة: هو شعيب ابن إسماعيل الكيالي الأدلبي، فاضل، ولد بأدلب سنة (1116هـ)، وتعلَّم في دمشق، وسكن حلب.

كان أديبًا أريبًا محقِّقًا، هشًّا بشًّا، لطيفًا عفيفًا، ومات في طريق الحجِّ سنة (1172هـ).

له مصنَّفات منها: «تدريب الوامق في معاملة الخلائق» مختصر في الفقه الشَّافعي، ثم شرحه وسماه «كفاية التايق إلى تدريب الوامق»، وله رسائل أخرى[1].

والنُّسخة الخطِّيَّة الوحيدة الَّتي اعتمدت عليها مصدرها (قسم المخطوطات في جامعة الملك سعود)، وهي نسخة حسنة، سليمة كلُّها، خطُّها نسخٌ حسن، تقع في تسع ورقات، تحت رقم: (2304).

ولم أعثر على نسخة خطِّيَّة أخرى للرِّسالة، ولا ضير في تحقيقها عن نسخة واحدة، كما يقول العارفون بهذا الشَّأن؛ إذا كانت النُّسخة سليمة بالجملة، ويمكن إخراج الكتاب عنها، فلا يتوانى الباحث عن العمل فيها قبل أن تضيع[2].

فقمت بنسخ الرِّسالة، وعزو الآيات والاقتباسات، وصوَّبت ما شاب الرِّسالة من أخطاء قليلة، وعلَّقت على مواضع معدودة، وجعلت المتن المشروح بين معقوفتين [ ]، تمييزًا له عن الشَّرح، وتأسِّيا بناسخها، حيث كتب المتن بالمداد الأحمر، والشَّرح بالمداد الأسود.

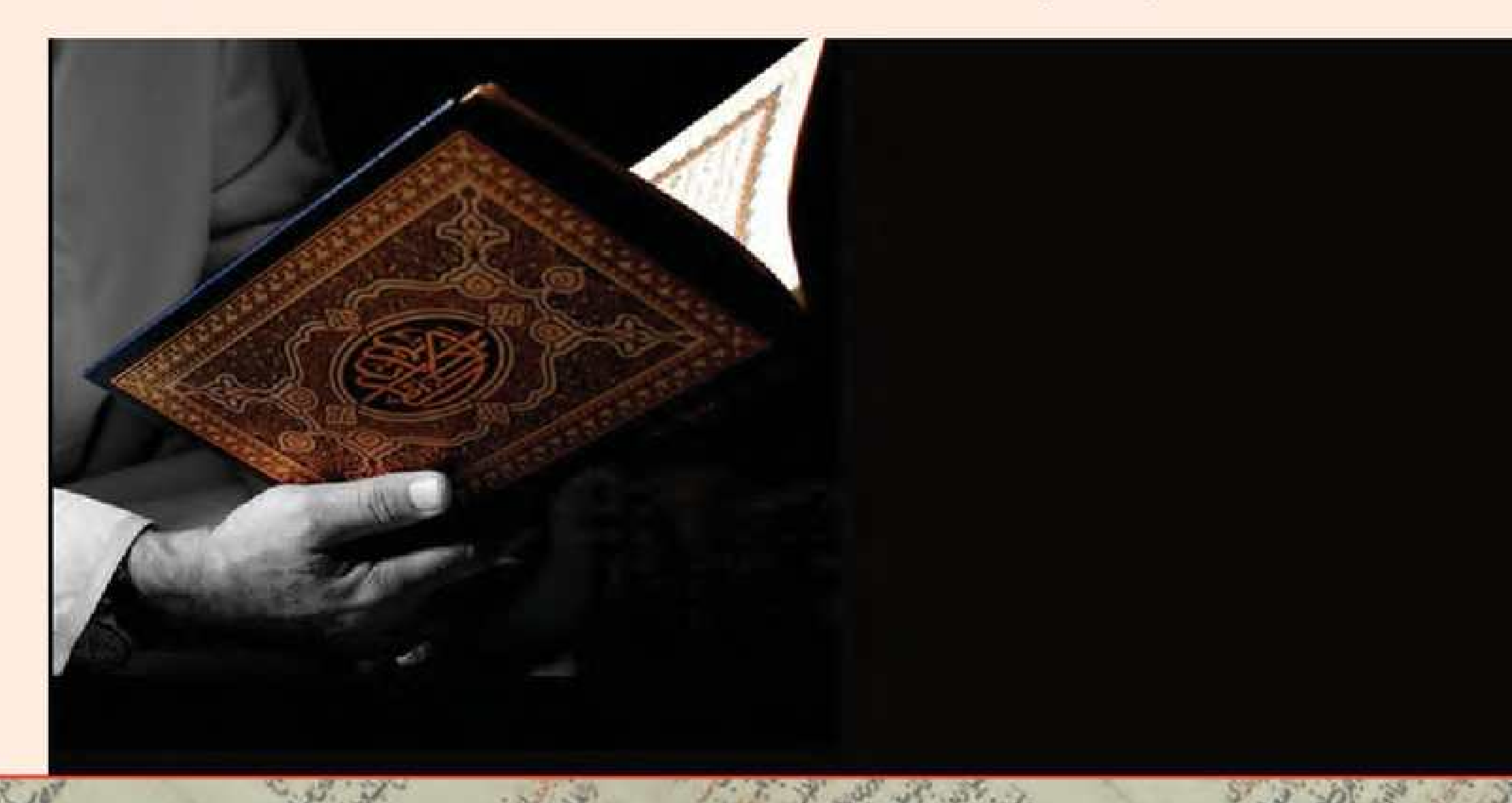
وليس لي في مقام الختام إلاَّ أن أنشد ما نظمه إمام القرَّاء أبو محمَّد القاسم ابن فيره الشَّاطبي (ت: 590هـ) في «حرز الأماني» حيث قال:

وَلَكِنَّهَا تَبغِي مِنَ النَّاسِ كُفؤَهَا
أَخَا ثِقَةٍ يَعفُو وَيُغضِي تَجَمُّلاً
وَلَيسَ لَهَا إِلا ذُنُوبُ وَلِيِّهَا
فَيَا طَيِّبَ الأنفَاسِ أَحسِن تَأَوُّلاَ

■ ■ ■

(1) انظر ترجمته في: «هدية العارفين» لاسماعيل باشا البغدادي (418/1)، «الأعلام» للزِّركلي (166/3)،. «معجم المؤلفين» لكحالة (301/4).

(2) انظر: «منهج البحث في الدراسات الاسلامية تأليفًا وتحقيقًا» لفاروق حمادة (ص75).



النَّصُ المُحَقَّق:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وبه ثقتي

الحمدُ لمُنزِل الحمد، والصَّلاة والسَّلام على العَلَم الفرد، وعلى آله الطَّاهرين، وصحابته الأكرمين، أمَّا بعد:

فهذا شرح لمنظومتي المسمَّاة بـ«**منحة ذي العرش فيما يتعلَّق بقراءة ورش**»، يفتح مُقفلها، ويُفصِّل مُجملها، على وجه لطيف، ومنهج منيف، وعلى الله اعتمادي، وإليه مرجعي ومعادي.

[بسم الله الرَّحمن الرَّحيم، الحَمدُ لِمُستَحِقِّه] أي لمستحقِّ الحمد ومالكه بجميع أنواعه، وهو الله سبحانه وتعالى، إذ هو يستدعي محمودًا عليه، يجب أن يكون صدر بالاختيار، ولا اختيار لغيره تعالى بالحقيقة عند أهل السُّنَّة، وأمَّا حمدُ غيره -سبحانه- فإنَّما يصحُّ على ضرب من التَّأويل[3]، وفي إبهامه كنظيره

(3) قوله: «ولا اختيار لغيره تعالى بالحقيقة عند أهل السُّنَّة، وأمَّا حمد غيره سبحانه فإنَّما يصحُّ على ضرب من التَّأويل» يفهم منه نفي الاختيار الحقيقي عن أفعال العباد، وهذا باطل، وهو معتقد الأشاعرة، الَّذين يرون أنَّ العبد ليس بفاعل، وإن نسب إليه الفعل، وإنَّما الفاعل في الحقيقة هو الله، ولا فاعل سواه، وإضافة الفعل إلى العبد مجاز.
والحقُّ الَّذي أجمع عليه أهل السُّنَّة والجماعة -رحمهم الله وجعلنا منهم- أنَّ العبد فاعل لفعله حقيقة، وله قدرة حقيقية، وأنَّه مريد له مختار له حقيقة، وأنَّ إضافته ونسبته إليه حقٌّ، وأنَّ فعل العبد مخلوق لله تعالى، ومفعول لله تعالى، ليس هو نفس فعل الله، ففرق بين الفعل والمفعول، والخلق والمخلوق، فأفعال العباد خلق الله، وفعل العباد.
انظر: «شرح العقيدة الطَّحاوية» لابن أبي العز الحنفي، (ص639-652)، وارجع إلى كتاب «شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتَّعليل» لابن قيم الجوزية.

الآتي في جملة الصَّلاة من التَّفخيم ما لا يخفى، والكلام على البَسْمَلَة والحَمْدَلَة قد شاع وذاع، حتَّى ملأ الأسماع، فلا نُطيل بذكره.

[والصَّلاةُ] وهي من الله رحمة مقرونة بتعظيم، **[والسَّلامُ]** بمعنى التَّسليم من النَّقائص.

وجمعت بينهما فرارًا من كراهة إفراد أحدهما عن الآخر، كما قاله النَّوويُّ[4]، وإن نُوزع فيه، **[عَلَى خَيرِ خَلقِهِ]** من الأنبياء والنَّبيئين والملائكة وغيرهم، وهو سيِّدنا محمَّد ﷺ.

وممَّا يدل على أفضليَّته قوله تعالى: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**﴾ [آل عمران: 110]، إذ خيريَّة الأمَّة تابعة لخيريَّة نبيِّها، وقوله ﷺ: «**آدَمُ وَمَنْ دُونَهُ تَحْتَ لِوَائِي**»[5].

وأمَّا نهيه ﷺ عن التَّفضيل بين الأنبياء، وعن تفضيله عليهم ونحو ذلك، فأُجيب عنه بأنَّه نهي عن تفضيل يؤدِّي إلى تنقيص بعضهم، فإنَّه كفر، أو عن تفضيل في نفس النُّبوَّة الَّتي لا تفاوت فيها، لا في ذوات الأنبياء المتفاوتين بالخصائص، أو نهي عن ذلك تأدُّبًا وتواضعًا، أو قبل علمه بأنَّه الأفضل.

[وَعَلَى آلِهِ] هم مؤمنو بني هاشم وبني المطَّلب، وقيل: أتباعه، وقيل: الأتقياء منهم.

(4) انظر: «شرح صحيح مسلم» للإمام النووي (44/1).

(5) أخرجه الترمذي (3148، 3615)، وابن ماجه (4298) عن أبي سعيد الخدري ﷺ، وأخرجه أحمد (2415، و2560) وأبو يعلى في «مسنده» (2328) عن ابن عبَّاس ﷺ، وصحَّحه العلامة الألباني، انظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (2411).

[وَأَصحَابِهِ] قد يُتوهَّم أنَّه جمعٌ لصاحب، وليس كذلك؛ لأنَّ «أفعالاً» لا يكون جمعًا لفاعل، بل هو جمع لـ«صحب»، الَّذي هو اسم جمع، أو جمع لـ«صاحب».

والمراد بـ«الصَّاحب» الصَّحابي، وهو من اجتمع مؤمنًا بنبيِّنا ﷺ، ومات على ذلك.

[و] على **[المُتقنين لكتابه]** العزيز، أي: الَّذين يتلونه حقَّ تلاوته، ويرْعَونَه حقَّ رعايته، بأن يعملوا بأوامره، ويجتنبوا نواهيَه، هذا هو الإتقان لا ما يفعله، كثير من أهل هذا الزَّمان في القراءة بالألحان، فإنَّه مذموم عند أهل العرفان.

نعم، إن لم يخرج القارئ بذلك عن طريق الأداء فلا بأس.

قال الغزالي: «وتلاوة القرآن حَقَّ تلاوته، أن يشترك فيه اللِّسانُ والعقلُ والقلبُ، فحظُّ اللِّسان تصحيح الحروف، وحظُّ العقل تفسير المعاني، وحظُّ القلب الاتِّعاظ والتَّأثُّر، والانزجار والائتمار، فاللِّسان يرتِّل، والعقل ينزجر، والقلب يتَّعظ»[6].

ومن أسباب منع فهم القرآن، أن يكون هَمُّ القارئ مصروفًا برُمَّته إلى تحقيق الحروف، بإخراجها من مخارجها، قال الغزالي: «وهذا يتولاَّه شيطان وُكل بالقرَّاء ليصرفهم عن فهم معاني كلام الله، فلا يزال يحملهم على ترديد الحروف، ويخيِّل لهم أنَّها لم تخرج من مخارجها، فهذا يكون تأمُّله

(6) انظر: «إحياء علوم الدِّين» لأبي حامد الغزالي (287/1).

مقصورًا على ذلك، فأنَّى تنكشف له المعاني، وأعظم «ضحكة»[7] للشَّيطان من كان مطيعًا لمثل هذا التَّلبيس»[8].

[وَبَعدُ] هي كلمة يؤتى بها للانتقال من أسلوب إلى آخر، أي: بعد ما تقدَّم من البَسْمَلَة والحَمدَلَة والصَّلاة.

[فَهَذه] إشارة إلى المجمل في الذِّهن، المُنَزَّل لكمال استحضاره مَنزِلَةَ المحسوس، والفاءُ إمَّا على توهُّم أَمَّا، أو على تقديرها في نظم الكلام، والفرق بين الاعتبارين وما يتفرَّع على كلٍّ مقرَّر في غير هذا الموضع.

[قطعَةٌ] أي: حصَّة في النَّظم، **[قَليلَةٌ]** عدَّة أبياتها سبعة عشر، وهي من الضَّرب الأوَّل من البحر الكامل، وإنَّما عبَّرت عنها بالقطعة مع أنَّها إنَّما تُقال على الأبيات المجتمعة سبعة فما دونها، أو عشرة كذلك على الخلاف، وما فوق ذلك يقال له قصيدة، مبالغةً في تقليلها عند الطَّالب، وتصغيرها في عينه، ليكون ذلك وسيلةً لحفظها والاعتناء بها، **[مشتملةٌ]** من اشتمال الكلِّ على أجزائه، **[عَلَى فَوَائِدَ]** وهي ما يُرغب في استفادته وتحصيله من ديني أو دنيويٍّ، وعرَّفها بعضهم بأنَّها ما يكون الشَّيءُ به أحسن حالاً منه بغيره، وبعضهم بأنَّها المصلحة المترتِّبة على الفعل، **[جَليلَةٍ]** أي: عظيمة شريفة، لشرف موضوعات مسائلها، الَّتي هي الكلمات القرآنيَّة المخصوصة، ومعلوم أنَّ شرف

(7) في الأصل: (محكة)، والتَّصويب من «إحياء علوم الدِّين».

(8) انظر: «إحياء علوم الدِّين» لأبي حامد الغزالي (284/1).

العلم بشرف موضوعه، [مُفصِحَةٌ] هذه القطعة، والإسناد مجازيٌّ، كـ﴿هُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾[9]، أي كاشفة [عَمَّا يَتَحَصَّلُ لِلشَّيخ أبي سعيد عثمان ابن سعيد الملقَّب بـ[وَرْش][10] في روايته عن الإمام أبي الحسن نافع بن عبد الرَّحمن ابن أبي نعيم مولى جعونة بن شعوب الليثي[11]، [مِن طَرِيقِ الشَّاطِبيَّة[12]] الَّذي اختاره ناظمها رحمه الله من بين طرقه الثَّلاثة، وهو طريق أبي يعقوب يوسف ابن عمرو بن يسار[13] الأزرق[14]، وطريقه الثَّاني أبو بكر محمَّد بن عبد الرحيم الأصبهاني[15]، والثَّالث أبو الأزهر عبد الصَّمد بن عبد الرَّحمن ابن القاسم العتقي[16]، صاحب مالك بن أنس، [مِنَ الأَوجُه] بيان لما، وهي جمع وجه، والمراد به عندهم، تتوقَّف معرفتُه على تقديم مقدِّمة، وهي أنَّ الخلاف إمَّا أن يكون للشَّيخ كنافع، أو للرَّاوي عنه كورش، أو للرَّاوي عن الرَّاوي وإن سَفُل، كالأزرق عن ورش، والنَّحَّاس[17] عن الأزرق، أو لم يكن كذلك، فإن كان للشَّيخ بكماله، أي: ممَّا اجتمعت عليه الرِّوايات والطُّرق عنه فقراءة، وإن كان للرَّاوي عن الشَّيخ فرواية، وإن كان لمن بعد الرُّواة وإن سفل فطريق، وما كان على غير هذه الصِّفة ممَّا هو راجع إلى تخيير القارئ فيه فهو وجه.

والفرق بين خلاف الأوجه وخلاف غيرها، [أنَّ خلافَ القراءات والرِّوايات والطُّرق خلافُ نصٍّ ورواية، فلو أخلَّ القارئ بشيء منها كان نقصًا في الرِّواية، وخلاف الأوجه ليس كذلك، إذ هو على سبيل التَّخيير، فبأيِّ وجه أتى القارئ أجزأ في تلك الرِّواية، ولا يكون إخلالاً بشيء منها، فلا حاجة لجمعها في موضع واحد بلا داع، ومن ثَمَّ كان بعضهم لا يأخذ منها إلاَّ بالأقوى، ويجعل الباقي مَأذُونًا فيه، وبعضهم لا يلتزم شيئًا، بل يترك القارئ يقرأ بما شاء، وبعضهم يقرأ بواحد في موضع وبآخر في غيره؛ لتَجمَعَ الجميعَ المشافهةُ[18]، وبعضهم يجمعها في أوَّل موضع، أو موضع ما، وجمعُهَا في كلِّ موضع تكلُّف مذموم، وإنَّما شاع[19] الجمع بين الأوجه، في نحو البدل عند ورش، وفي نحو التَّسهيل في وقف حمزة، لتدريب القارئ المبتدئ، فيكون على سبيل التَّعريف، فلذا لا يكلف العارف بها في كلِّ محلٍّ][20].

[عِندَ تَرَكُّبِ البَدَلِ مَعَ اللِّين] أي: اجتماعهما في آية واحدة، أو قرآن واحد، والظَّرف متعلِّق بيَتَحَصَّل، والمراد بالأوَّل ما وقع بعد همز ثابت، نحو: ءامنوا، أوتوا، إيمان، أو مُغَيَّر بنقل أو إبدال أو تسهيل، نحو: ﴿من ءامن﴾، ﴿هؤلاء آلهة﴾، ﴿جاء آل لوط﴾، وله في هذا النَّوع ثلاثة أوجه، القصر، والتَّوسُّط، والطول، إلاَّ ما استثني[21].

(9) سورة الحاقة: (21)، وسورة القارعة (7).

(10) ورش: (110 ـ 197 هـ) عثمان بن سعيد بن عدي، أبو سعيد، المصري، من كبار القراء، لقبه شيخه نافع بورش، لشدة بياضه، أصله من القيروان، قرأ القرآن على نافع عدة ختمات، إليه انتهت رياسة الإقراء في الديار المصرية، ومولده ووفاته بمصر. انظر ترجمته في: «معرفة القراء الكبار» للذهبي (1/ 152، 153).

(11) نافع القارئ: (... ـ 169 هـ) نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم، أبو رويم، الليثي بالولاء المدني، أحد القراء السَّبعة المشهورين، أصله من أصبهان، اشتهر في المدينة، وانتهت إليه رياسة القراءة فيها، وأقرأ النَّاس نيِّفًا وسبعين سنة، وتوفي بها. انظر ترجمته في «معرفة القراء الكبار» للذهبي (1/ 107 ـ 111).

(12) وهي القصيدة اللامية «حرز الأماني ووجه التَّهاني» المعروفة بـ«الشَّاطبية في القراءات السَّبع» للإمام أبي محمد القاسم بن فيره الشَّاطبي (ت: 590 هـ).

(13) في الأصل: «سيار»، والتَّصويب من: «معرفة القرَّاء الكبار».

(14) الأزرق: (... ـ 240 هـ) يوسف بن عمرو بن يسار، أبو يعقوب، المدني ثم المصري، من كبار القرَّاء، لزم ورشًا مدة طويلة، وأتقن عنه الأداء، وهو الذي خلف ورشًا بالإقراء في الدِّيار المصريَّة، انظر ترجمته في «معرفة القرَّاء الكبار» للذَّهبي (1/ 181).

(15) الأصبهاني المقرئ: (... ـ 296 هـ) محمد بن عبد الرحيم ابن إبراهيم، أبو بكر، الأصبهاني، المقرئ شيخ القراء في زمانه، إمام في رواية ورش، توفي ببغداد، انظر ترجمته في «معرفة القرَّاء الكبار» للذَّهبي: (1/ 232، 233).

(16) العتقي: (... ـ 231 هـ) عبد الصَّمد بن عبد الرحمن ابن القاسم العتقي، أبو الأزهر، المصري، أحد الأئمَّة الأعلام، قرأ القرآن وجوَّده على ورش، لرفعة مكانته اعتمد الأندلسيون على رواية ورش. انظر ترجمته في: «معرفة القرَّاء الكبار» للذَّهبي (1/ 182).

(17) إسماعيل النحاس: (... ـ بعد 280 هـ) إسماعيل بن عبد الله بن عمرو، أبو الحسن، مقرئ الدِّيار المصريَّة، جوَّد القرآن على أبي يعقوب الأزرق صاحب ورش، وتصدَّر للإقراء. انظر ترجمته في «معرفة القرَّاء الكبار» للذهبي (1/ 231).

(18) في الأصل: المشاغلة، والتَّصويب من «منتهى الأماني والمسرات» للدمياطي (1/ 26).

(19) وفي «منتهى الأماني والمسرَّات»: ساغ.

(20) العبارة برُمَّتها مقتبسة من كتاب: «إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر» ويسمَّى أيضًا: (منتهى الأماني والمسرَّات في علوم القراءات» لشهاب الدِّين أحمد بن محمَّد عبد الغني الدِّمياطي (ت1117هـ): (1/ 26، 27).

(21) لم يذكر المستثنيات من مدِّ البدل هنا، وقد اتَّفق رواة المدِّ عن الإمام ورش على استثناء كلمة، وأصلين، أمَّا الكلمة فهي: (يواخذ) كيف وقعت، وأمَّا الأصلان: فالأوَّل: الكلمات الَّتي يكون فيها قبل الهمز ساكن صحيح، وهي: القرءان، والظَّمآن، ومسئولا، مذؤوما، ومسئولون، والأصل الثَّاني: أن تكون الألف بعد الهمزة مبدلة من التَّنوين في الوقف، نحو: دعاءً، ونداءً، وهزؤًا، وملجأً، واختلف الرُّواة عن ورش في استثناء ثلاث كَلِم، وأصل مُطَّرد، أمَّا الكلمات فهن: «إسرائيل»، حيث وقعت، و(آلآن) المُستفهم بها في حرفي يونس، و(عادا الاولى) في سورة النَّجم، وأمَّا الأصلُ المختلفُ في استثنائه، فهو حرف المدِّ إذا وقع بعد همزة الوصل حالة الابتداء، نحو: ايت بقرآن، ايتوني، اوتمن، ايذن لي). انظر: «النشر في القراءات العشر» لابن الجزري (1/ 340 ـ 342).

والمراد بالثَّاني اللِّين الواقع قبل همز، نحو: شيء، وسوء، لأنَّه الَّذي انفرد به ورش، فأجاز فيه الوجهين التَّوسُّط وصلاً ووقفًا، لا مطلق اللِّين، ويستثنى له من ذلك الموؤدة بالتَّكوير[22]، وموئلاً بالكهف[23]، فليس له فيها إلاَّ القصر.

وأمَّا واو «سوءات» فظاهر متن الشَّاطبيَّة فيها ثلاثة أوجه، وعليه فيتحصَّل من تركُّبها مع البدل تسعة أوجه، حاصلة من ضرب ثلاثة الواو مع ثلاثة البدل، وعلى هذا فيكون مستثنى ممَّا سبق، لكن قال الشَّيخ الإمام العالم العلاَّمة محمَّد بن إسماعيل البقري[24]: «ليس كلام الشَّاطبي على ظاهره، فإنَّ الإمام الشَّيخ محمَّد بن الجزري صرَّح في «نشره» و«طيبته»[25] بأربعة أوجه، القصر في همزة سوءات والتَّوسُّط والمدّ مع القصر في الواو، والتَّوسُّط في الواو مع التَّوسُّط في الهمز، ليس إلاَّ هذا ما قرأنا به على شيخنا» انتهى كلام البقري.

وجمع ابن الجزري الأوجه الأربعة في بيت فقال:

وَسَوْءَاتُ قَصِّر الوَاوَ وَالهَمْزَ ثَلِّثَا
وَوَسِّطْهُمَا فَالكُلُّ أَرْبَعَةٌ فَادْرِ[26].

[أَوْ] مع [المُمَالِ] أي: اللَّفظ الَّذي شأنه أن يُمَالَ، والمراد الكَلِمُ ذواتُ الياء الَّتي له فيها وجهان، الفتح والإمالة، أي: الإمالة الصُّغرى، الَّتي هي إلى الفتح أقرب، ويُعبَّر عنها بالتَّقليل، وبيْنَ بَيْنَ، وإنَّما أُطلقت في موضع التَّقييد، اعتمادًا على شهرة ذلك عند أرباب هذا الفنِّ.

[أَوْ] تركَّب [اللِّين مَعَ المُمَالِ] المذكورين، [أَوْ] تركَّب [الثَّلاثَة] البدل، واللِّين، والممال، [صُغتُبهَا] من الصِّياغة، ويعبَّر بها عن إتقان الشَّيء وإحكامه، والمعنى: أنِّي أتقنتها، وجعلت مادتها [مَا نَقَّحَهُ] أي: هذَّبه وحرَّره [المَشَاهِيرُ مِنَ النَّقَلَة] بالفتحات جمع ناقل، أي النَّاقلين عن ورش، [وَنَفَّاهُ] عَطْفٌ على نقَّحه، وهو بتشديد الفاء، أي: خلَّصه، وصفَّاه، [نُفَاةُ الغَثّ مِنَ السَّمِين] أي: النَّاقلون الَّذين دأبهم، نفي رديء الكلام عن جيِّده، وتمييزه عنه، ليؤخذ الجيِّد خالصًا نقيًّا، ويرمى سواه إلى الوراء ظهريًّا، [مِنَ الفَضَلَة] بالفتحات، جمع فاضل، وهو بيان للنُّفاة [رَامِزًا] هو حال من فاعل صغت، أي واضعًا على سبيل الرَّمز [لِلْبَدَلِ بَاءً، وَلِلِّين لامًا، وَلِلْمُمَال مِيمًا] اقتصارًا من اللَّفظ على حرف منه، وتعبيرًا به مرادًا منه إيَّاه، [رَوْمًا] أي: طلبًا [لِلاخْتِصَارِ] وهو تقليل اللَّفظ وتكثير المعنى، وبالجملة فهي طريقة شرعتها، وأوضاع اخترعتها، فيها من لطف الإشارة ما يغني عن طول العبارة، وكأنِّي بالبعض وقد بلغه شذاها، ينكر فضلها، ويحقر جدواها[27]، فإن كان ذو عيب في ريب، فليأت بمثله، أو ليمت بغيظه في جهله.

[فَعَبَّرْتُ بِبَلْ] أي: بهذا اللَّفظ، [عَن كُلِّ مَا] أي كلِّ موضع من كلام الله ﷻ، [اجْتَمَعَ فِيهِ البَدَلُ واللِّينُ مَعَ تَقَدُّمِ البَدَلِ] على اللِّين، فههنا معنيان، دلَّ على أحدهما بجوهر اللَّفظ، وأشير إلى الآخر بصفته، وكذا يقال فيما بعده، [وَ] عبَّرت [بِبَلْم عن كُلِّ مَا اجتَمَعَ فِيهِ الثَّلاثَةُ] السَّابقة، البدل واللِّين والممال، [مَعَ تَقَدُّمِ البَدَلِ] عليها، [وَتَوَسُّطِ اللِّين] بينه وبين الممال، ويلزم منه تأخُّر الممال؛ ولذا لم أذكره، [وَقِسْ البَاقِي] من الرُّموز على ما ذكرنا، وقلَّ فيه مثل ما قلنا، والمثل ستأتي كلا قبيل رمزه، [وَصُوَرُ التَّرْكِيبِ] الواقع بينها، أي: ما يصدق عليه اسمه أعمّ من أن يكون ثنائيًّا أو ثلاثيًّا [عَلَى مَا اقتَضَاهُ العَقْلُ] هو مأخوذ من عقال البعير، لكونه يمنع ذويه من العدول عن سواء الطَّريق، ومن بلاغات الزَّمخشري هو عقلك ليعقلك، وحجرك ليحجرك، ونهيتك لينهاك[28]، وفي حقيقته اختلاف كثير، قال بعضهم: والصَّحيح أنَّه جوهر تدرك به الغائبات بالوسائط والمحسوسات بالمشاهد، [وَوَافَقَهُ الوُجُودُ] في كلام الله ﷻ [ثِنتَيْ عَشْرَ] صورة، ستَّة ثُنائيَّة، ومثلها ثلاثيَّة، وذلك لأنَّ المجتمع إن كان اثنين منها، فهما إمَّا البدل مع اللِّين، أو هو مع الممال، أو اللِّين مع الممال، وكلٌّ من هذه الثَّلاثة إمَّا أن يؤخذ طردًا أو عكسًا، وإن كان المجتمع الثَّلاثة، فكلٌّ منه إمَّا أن يتقدَّم أو يتوسَّط أو يتأخَّر،

(22) سورة التكوير (8).
(23) سورة الكهف (58).
(24) محمد البقري: (.... 1107هـ) محمَّد ابن إسماعيل الأزهري، البقري، المصري، الشَّافعي، من شيوخ الإقراء بالجامع الأزهر، توفي بمصر، له مؤلفات جمة، انظر ترجمته في «معجم المؤلفين» لكحالة (54/9).
(25) انظر: «النشر في القراءات العشر» لابن الجزري: (347/1).
(26) انظر: المصدر السَّابق (347/1).
(27) في الأصل: جذواها.
(28) تصرَّف المؤلف في عبارة «الكشَّاف»، انظر: «الكشاف عن حقائق التَّنزيل» للزمخشري (750/4).

وكلّ من هذه إمَّا مع طرد الباقي أو عكسه **[وَكَانَ حَقُّ الرُّمُوزِ]** المقصود بها تأدية هذه الصّور **[أَن تَكُونَ كَذَلكَ]** اثني عشر رمزًا بعددها، **[لَكنِّي استَغْنَيْتُ فِي الثُّنَائيَّاتِ عَنِ الرَّمْزِ لِصُورَةٍ]** هي صورة تركّب الممال واللّين، مع تقدُّم الممال، فلم أرمز لها **[كَمَا سَتَعْرِفُهُ]** في بيت «لمَّ» اكتفاءً بقولي فيه: «والعكس يجري هكذا لن يعدلا» **[وَسَمَّيتُهَا منحَةَ ذي العَرْشِ فيمَا يَتَعَلَّقُ بقرَاءَةِ وَرْشٍ رَاجيًا]** من الله **[أَن تَكُونَ]** هذه المنظومة **[مُقَدِّمَةً]** بكسر الدَّال أشهر من فتحها، أي: وسيلة موطئة وممهدة **[لمنحته]** وعطائه، **[مُنتجَةً]** أي: مفيدة ومثمرة **[للْخَلاص]** أي: النّجاء **[مِن محنَته]** وبلائه، **[إِنَّهُ جَوَادٌ]** بالتَّخفيف، وحكي فيه التَّثقيل، أي: كثير الجود والعطاء، **[كَرِيمٌ]** يبدأ بالنَّوال قبل السُّؤال، أو مطلقًا، ولذا فُسّر بأنَّه الَّذي عَمَّ عطاؤُه جميع خلقه بلا سبب منهم، **[رَؤُوفٌ]** بعباده، **[رَحِيمٌ]** لهم، والرَّأفة والرَّحمة مترادفتان، أو الأولى أخصُّ مطلقًا، وقد آن لي أن أشرع في المقصود متوكّلاً على الملك المعبود.

فأقول:

الصُّورة الأولى من صور التَّركيب: تركُّب البدل واللّين مع تقدُّم البدل، وهي المشار إليها بقولي **[بلاً]**، مثالها قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِن آيَةٍ﴾ الآية[29]، **[عَلَى غَيرِ الطَّوِيلِ]** من أوجه البدل، أعني: على القصر والتَّوسُّط **[فَوَسِّطَنْ]**

(29) سورة البقرة: 106. وهو قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. البدل في: «آية»، واللين في «شيء».

لينَه، أي: كَرِّره معهما، **[وَعَلَيْه]** أي: على المدِّ في البدل، **[وَسّطْ]** لينَه أيضًا أولا، **[ثُمَّ مُدَّ مُطَوِّلاً]** له ثانيًا، فهذه أربعة أوجه، وكان مقتضى القسمة العقليَّة، أن يكون في مثل ذلك ستَّة أوجه، حاصلة من ضرب وجهي اللّين في ثلاثة البدل، لكن امتنع اثنان، وهما: الطُّول في اللّين مع القصر والتَّوسُّط في البدل، لامتناع بناء القويّ على الضَّعيف، وفيه أنَّ القراءة سنَّة متَّبعة، لا دخل للدِّراية فيها، وَرُدَّ بأنَّها رواية وافقتها الدِّراية، وما ذُكر حكمة لا علَّة يثبت الحكم بثبوتها، وينتفي بانتفائها.

بقي ههنا شيء لا بأس بالتَّنبيه عليه وهو أنَّه إذا أُريد تقريرُ أوجه المركَّبين والمركَّبات وتبيينُها، يُقال: يُؤتى مثلا بكذا على كذا، بإدخال لفظة «على» على المتقدِّم، وكثيرًا ما يستعمل بالعكس، بأن تدخل على المتأخِّر، والطَّريقان صحيحان مؤدِّيان المقصود، واختلاف العبارات باختلاف الاعتبارات، أمَّا الأول فعلى لمح معنى نحو البناء؛ لأنَّ القارئ الَّذي يريد أن يجمع بين الأوجه، يستقرُّ على الأوَّل من الأمرين أو الأمور، ويكرِّر ما بعده حتَّى تنفد أوجهه، فكأنَّه يفرعها عليه، وأمَّا الثَّاني فعلى لمح معنى نحو المرور؛ لأنَّ القارئ المذكور يبدأ بالأوَّل ويمرُّ على الثَّاني فيأتي به معه، والطَّريق الثَّاني وإن كان في كلامهم أكثر، إلاَّ أنَّ وجه الأوَّل عندي أظهر، ولذا جريت عليه في المنظومة، ومنه قولي: «بلاً عَلَى غَيرِ الطَّوِيلِ فَوَسِّطَنْ»، وإلاَّ لقلت: «بلاً عَلَى التَّوَسُّطِ فَاقْصُرْ وَامْدُدَنْ»، أو نحو ذلك.

الصُّورة الثَّانية: عكس الَّتي مرَّت، وإليها أشرت بقولي: **[لَبًا]** مثالها قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾[30]، **[مَعَ التَّوْسيط]** في لينه، **[ثَلِّثْ مَدَّهُ]** أي: ائت بأوجه مدِّ البدل فيه الثَّلاثة، **[وَالطُّولَ]** في لينه، **[مَعْهُ]** بتسكين العين، **[الطُّولَ]** في بدله، **[خُذْ]** أي: اقرأ بذلك، **[وَسوَاهُ]** من القصر والتَّوسُّط في البدل **[لاَ]** تأخذ به معه، والطُّول الأوَّل يجوز فيه النَّصب والرَّفع، وليس في الثَّاني إلاَّ النَّصب.

الصُّورة الثَّالثة: تركُّب البدل والممال مع تقدُّم البدل، وهي الَّتي أشرت إليها بقولي: **[بمًا]**، مثالها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ الآية[31]، **[اقْصُرَنَّ]** البدل **[فَافْتَحْ]** حينئذ الممال وجهًا واحدًا، **[وَإِنْ وَسَّطتَ]** أنت البدل **[لاَ]** تفتح الممال، بل قلِّله وجهًا واحدًا.

■ **تنبيه:** قد يُتوهَّم أنِّي توسَّعت بحذف الفاء من لا، وأنَّ ذلك من قبيل قول الشَّاعر:

من يفعل الحسنات الله يشكرها
والشر بالشر عند الله سيان[32]

وليس كذلك، إذ الإتيان في هذا النَّحو جائز لا واجب، بخلاف ما ذكر؛

(30) سورة الذاريات: (49، 50، 51). وهو قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ *﴾، اللين في «شيء»، والبدل في «ءاخر».

(31) سورة البقرة: جزء من الآية: (34). وسورة طه: (116). وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾، البدل في «ءادم»، والممال في «أبى».

(32) النحاة يستشهدون بهذا البيت على حذف الفاء من جواب الشرط للضرورة، والبيت في «ديوان كعب ابن مالك» (ص108).

للفرق بين المقامين، كما لا يخفى.

[وَافْتَحْ وَقَلِّلْ] في الممال مقدِّما الفتح لكونه الأصل، **[إِن مَدَدتَ]** البدل، وقولي: **[مُرَتِّلاَ]**، القصد منه تكميل البيت، ولا يخفى وجه مناسبته للمدِّ.

الصُّورة الرَّابعة: عكس الَّتي قبلها، وإليها الإشارة بقولي: **[مبًا]**، مثالها قوله تعالى: ﴿**فَتَلَقَّى آدَمُ**﴾ الآية[33]، **[عَلَى الفَتْحِ]** في الممال **[اقْصُرَنَّ]** بدله أولا، **[وَطَوِّلَنْ[34]]** أي: مدَّه مدًّا طويلاً على قاعدته ثانيًا، وأمَّا التَّوسُّط فممنوع، **[وَإِذَا أَمَلتَ]** مماله، وقد عرفت كيف إمالته، **[القَصْرَ فَامْنَعْ]** أي: امنع القصر في البدل، وأت بالوجهين الباقيين، وقولي: **[وَاحْظُلا[35]]** عطف مرادف فائدته التَّكملة، فإن قلت: قد تبيَّن أنَّ القصر مفعول لامْنَعْ مقدَّم عليه، والفاء لا يعمل ما بعدها فيما قبلها، كما بُيِّن في موضعه، فكيف هذا التَّركيب؟ قلت: الفاء في مثل هذا التَّركيب زائدة، فلا تمنع ما بعدها من العمل في ما قبلها، ونظيره قوله تعالى: ﴿**وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ**﴾ [المدثر: 3].

الصُّورة الخامسة: تركُّب اللِّين والممال، مع تقدُّم اللِّين، وهي المشار إليها بقولي **[لَمًّ]**، مثالها قوله تعالى: ﴿**وَنَضَعُ المَوَازِينَ القِسطِ**﴾ إلى ﴿**حاسبين**﴾[36]، **[عَلَى كُلٍّ]** من وجهي لينه، **[بِكُلٍّ]** من وجهي مماله، **[فَأْتِينْ[37]]** من غير استثناء شيء مما تقتضيه القسمة العقليَّة.

الصُّورة السَّادسة: عكس الَّتي قبلها، وهي الَّتي أوميت إليها بقولي: **[وَالعَكسُ]**، مثالها قوله تعالى: ﴿**وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ**﴾[38]، وحكمه أنَّه **[يَجْرِى هَكَذَا]** من إجراء كلّ من الوجهين، **[لَنْ يَعْدِلاَ]** عن هذا الحكم والَّن للإطلاق.

الصُّورة السَّابعة: تركُّب الثَّلاثة مع تقدُّم البدل وتوسُّط اللِّين، وإليها الإشارة بقولي **[بَلِّمْ]**، مثالها قوله تعالى: ﴿**فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾[39]، **[بِقَصْرٍ]** في البدل **[مَعْهُ]** بالتَّسكين **[وَسِّطْ]** اللِّين **[وَافْتَحَنْ]** الممال، **[وَمَعَ التَّوَسُّطِ]** في البدل **[وَسِّطَنَّ]** اللِّين أيضًا كما وسطته مع القَصْر، **[مُقَلِّلاَ]** للمال، **[والطُّولُ]** في البدل **[وَسِّطْ مَعْهُ]** اللِّين أولا، **[وَافْتَحْ وَلْتُمِلْ]** أي: اقرأ بالوجهين في الممال مع هذا التَّوسُّط، **[وَاعْطِفْ]** على التَّوسُّط المذكور ثانيًا **[مَعَ الوَجْهَيْنِ]** المذكورين، أعني الفتح والإمالة، **[مَدًّا]** في اللِّين **[أَطْوَلا]** على قاعدته، فعُلِمَ أن الطُّول في البدل يستتبع شيئين، كلٌّ منهما يستتبع شيئين آخرين.

الصُّورة الثَّامنة: تقدُّم البدل كالتي قبلها مع عكس ما بقي، وإليها الإشارة بقولي **[بَمِّلْ]** مثالها قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِصَاصُ فِي القَتْلَى**﴾[40] الآية، **[مَعَ القَصْرِ]** في البدل، **[افْتَحَنَّ]** الممال **[وَوَسِّطَن]** اللِّين، **[وَأَمِلْ]** الممال، **[وَوَسِّطْ]** اللِّين **[لِلتَّوَسُّطِ]** أي: لأجل توسُّط البدل أو عنده، على حدِّ قوله تعالى: ﴿**أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ**﴾ [الإسراء: 78]، وقولي **[وَاعْدِلاَ]** مكمل للبيت، وأشرت به إلى أنَّ نكته اختيار التَّوسُّط للتوسُّط العدل والموازنة، **[والطُّولُ]** في البدل، **[وَجْهَا اليَاءِ]** أي: الفتح والتَّقليل كائنان **[مَعْهُ]** بالتَّسكين **[كِلاَهُمَا[41]]** أي: كلا وجهيهما **[وَسِّطْ وَطَوِّلْ مَعْهُ]** أي: اقرأ بالتَّوسُّط والطُّول في اللِّين، مع كلٍّ من الوجهين المذكورين، وإفراد الضَّمير العائد على كلا باعتبار لفظه، وقولي: **[تَتْبَعْ]** بالجزم؛ لأنَّه جواب الطَّلب، أي: أن توسّط وتطول مع ما ذكر تتبع **[مَن تَلاَ]** أي من القرَّاء المتقدِّمين النَّاقلين لهذه

(33) سورة البقرة (37)، وهو قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾، الممال في «فتلقى»، والبدل في «ءادم».

(34) كذا في الأصل، وفي نصِّ المنظومة الَّذي كتب في اللَّوحة التَّاسعة مستقلاً عن الشَّرح: (طَوِّلاَ).

(35) الحظل: المنع من التَّصرُّف والحركة، انظر: «لسان العرب» لابن منظور (11/ 155).

(36) سورة الأنبياء (47)، وهو قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ المَوَازِينَ القِسْطَ لِيَوْمِ القِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾، اللِّين في: «شيئًا»، والممال في «كفى».

(37) كذا في الأصل، وفي نصِّ المنظومة الَّذي كتب في اللَّوحة التَّاسعة مستقلاً عن الشَّرح: (فَأْتِيَا).

(38) البقرة (216)، وهو قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، والممال في «عسى»، واللِّين في: «شيئًا».

(39) سورة الشورى (36)، وهو قوله تعالى: ﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾. البدل في «أوتيتم»، واللِّين في «شيء»، والممال في «الدنيا».

(40) سورة البقرة (178)، وهو قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِصَاصُ فِي القَتْلَى الحُرُّ بِالحُرِّ وَالعَبْدُ بِالعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. البدل في «ءامنوا»، والممال في «القتلى»، واللِّين في «شيء».

(41) كذا في الأصل، وفي نصِّ المنظومة الَّذي كتب في اللَّوحة التَّاسعة مستقلاً عن الشَّرح: «كِلَيْهِمَا»، لذلك قال بعد: «وقولي: كليهما منصوب على الاشتغال، ويجوز رفعه...».

الأوجه عن ورش، والإتيان بذلك لغرض التَّكملة، وقولي: «كليهما منصوب على الاشتغال»، ويجوز رفعه على الابتداء، (...)[42] فالجملة بعده خبر، إمَّا بتقدير القول أو بدونه على الخلاف في الجملة الإنشائيَّة الواقعة خبرًا عن المبتدأ، ولا يجوز كونه تأكيدًا لقولي: وجها الياء، كما قد يُتوهَّم لفساد المعنى، وقد تبيَّن أنَّ الطُّول ههنا مستتبع لمثل ما سبق.

الصُّورة التَّاسعة: توسُّط البدل مع تقدُّم اللِّين، وإليها الإشارة بقولي [**لَبْمْ**]، مثالها قوله تعالى: ﴿**فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا**﴾ إلى قوله ﴿**إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾[43].

[**إذَا وَسَّطت**] لينه [**ثَلِّثْ مَدَّهُ**] البدلي، أي: اقرأ بأوجهه الثَّلاثة، [**مَعَ قَصْرِهِ افْتَحْ**] الممال [**وَ**] مع [**التَّوَسُّطَ قَلِّلا**] الأصل «قللن» بنون التَّوكيد الخفيفة، أبدلت ألفًا للوقف، [**وَالثَّالثُ**] من أوجه البدل، أعني: المدّ، [**الوَجْهَانِ**] المذكوران، أعني: الفتح والتَّقليل المتفرِّقين في غير المدِّ كائنان ومجتمعان [**فيهِ**] بتقديم الفتح؛ لأنَّه الأصل، [**وَمُدًّا**] ايت البدل وجهًا واحدًا لا غير، [**إن تَمْدُدْ**] اللِّين [**وَوَجْهَا اليَاءِ**] أي: الفتح والتَّقليل المذكوران، [**فيهِ**] بإشباع كسرة الهاء

(42) كلمة غير واضحة في الأصل.

(43) سورة البقرة: (109 ـ 112). وهو قوله تعالى: ﴿فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (109) وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللّهِ إِنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ *﴾، اللين في «شيء»، والبدل في «ءاتوا»، والممال في «بلى».

لإقامة الوزن، أي: معه، [**أُعْملا**] أي: قرئ بهما على التَّرتيب السَّابق.

الصُّورة العاشرة: توسُّط البدل - أيضًا - كالَّتي قبلها، مع عكس ما بقي، وإليها الإشارة بقولي: [**مَبْلْ**]، مثالها قوله تعالى: ﴿**أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا**﴾ إلى ﴿**قَدِيرٌ**﴾[44] [**لَبِهِ افْتَحْ**] الممال حالة كونك [**قَاصِرًا**] للبدل [**وَمُوسِّطًا**] للين [**وَاتْبَعْهُ**] أي: فتح الممال [**بالطُّولَيْنِ**] أي: بالطُّول في البدل، والطُّول في اللِّين، أي: اقرأ بهما معه ثانيًا، بعد أن قرأت بالقصر في الأوَّل، والتَّوسُّط في الثَّاني معه أولا، وقولي: [**يَعْذُبُ مَنْهَلا**] الغرض منه التَّكملة، [**قَلِّلْ**] أي: إذا فرغت من وجه الفتح في الممال، وما يتبعه قلِّله، وحينئذ [**فَوسِّطْ فيهِمَا**] أي: في الأمرين الواقعين بعده، أعني: البدل واللِّين، [**وَ**]بعد ذلك [**للينه**] فقط [**طَوِّلْ وَ**] بعد ذينك الوجهين [**طَوِّلْ فيهِمَا**] أي: في البدل واللِّين، [**وَتَرَسَّلا**] أي: اتئد وتأنَّ، وهو من عطف اللاَّزم على الملزوم، والقصد منه التَّكملة والإشارة إلى حال التَّطويل.

الصُّورة الحادية عشر: تأخُّر البدل مع توسُّط الممال، وإليها الإشارة بقولي:

(44) سورة البقرة (259)، وهو قوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *﴾، الممال في: «أنى»، والبدل في «ءاية»، واللِّين في «شيء».

[**لَمْبْ**] مثالها قوله تعالى: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ**﴾ الآية[45]، [**عَلَى التَّوسيطِ**] في لينه [**كَرِّرْ يَاءَهُ**]، أي: مماله ذا الياء، والمعنى اقرأ بوجهيهما، الفتح ثمَّ التَّقليل، [**وَاقْصُرْ وَمُدًّا**] أي: ولا توسِّط، [**إِذَا فَتَحْتَ**] الياء، وقولي: [**المُبْدَلا**] مفعول به تنازع فيه كلّ من اقصر ومدّ، فيجري في العامل فيه منهما الخلاف المشهور بين النُّحاة، وألفه للإطلاق، [**وَإِذَا أَمَلْتَ**] الياء [**بغَيْرِ قَصْرٍ**] من أوجه البدل، يعني بالتَّوسُّط والطُّول، [**فَأْتِيَنْ**] وامتناع القصر على الإمالة كامتناع التَّوسط على الفتح، فقد ظهر أنَّ التَّوسُّط في اللِّين هنا مستتبع لشيئين، كلٌّ منهما مستتبع لشيئين آخرين، كما سبق نظيره في الطُّول في البدل، [**وَالطُّولُ**] في اللِّين [**كَرِّرْهَا**] أي: الياء بالمعنى السَّابق [**عَلَيْهِ وَطَوِّلا**] أي: البدل مع وجهي الياء.

الصُّورة الثَّانية عشر: وهي خاتمتها، تأخير البدل كالَّتي قبلها، مع عكس ما بقي، وإليها الإشارة بقولي: [**مَلْبْ**]، مثالها قوله تعالى: ﴿**وَمَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْ شَيْءٍ**﴾ الآية[46]

(45) سورة الأنفال (41)، وهو قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، فاللين في «شيء»، والممال في «القربى»، والبدل في «ءامنتم».

(46) سورة إبراهيم (38 ـ 43)، وهو قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللّهِ مِن شَيْءٍ فَي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء * الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاء * رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاء * رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ * وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاء *﴾ الممال في «يخفى»، واللِّين في «شيء»، والبدل في «رءوسهم».

[بفَتْحِ] في الممال أولا [مَعْهُ وَجْهَا لِينِهِ] التَّوسُّط والطُّول، [وَامْدُدْ] البدل [لِثَانٍ] من الوجهين المذكورين أي: الطُّول، [وَاقْصُرَنْـلَه [لأَوَّلا] منهما أي: التَّوسُّط، وألفه للإطلاق، واللَّام في الموضعين للتَّعليل، أو بمعنى عند، [وَأَمِلْ] الممال ثانيًا، وحينئذ [فَوَسِّطْ] لينه أولا، [وَأْتِيَنَّ] معه من أوجه البدل، [بِمِثْلِهِ] أي: بالتَّوسط [وَالطُّولِ وَامْدُدْ] لينه ثانيًا، وحينئذ [فَامْدُدَنَّ] البدل [مُكَمِّلا] لمدِّه، بالفاء إلى الحدِّ الَّذي يراه، وفيه من أنواع البديع حسن الاختتام، وهو أن يؤتى آخر الكلام بما يؤذن بالختم والإكمال.

وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد، وعلى آله وصحبه وسلم.

■ ■ ■

وقد فرغ من تعليقه مؤلِّفه شعيب ابن إسماعيل الكيالي المقيم يومئذ بأدلب الصُّغرى، يوم الثُّلاثاء منتصف شهر رجب الفرد، سنة إحدى وخمسين ومائة وألف.

نص المنظومة

بِلًّا عَلَى غَيرِ الطَّوِيلِ فَوَسِّطَنْ   وَعَلَيهِ وَسِّطْ ثُمَّ مُدَّ مُطَوَّلا
لَبًّا مَعَ التَّوسِيطِ ثَلِّثْ مَدَّهُ   والطُّولُ مَعْهُ الطُّولَ خُذْ وَسِوَاهُ لا
بِمَّ اقْصُرَنَّ فَافْتَحْ وَإِن وَسَطت لا   وَافْتَحْ وَقَلِّلْ إن مَدَدت مُرَتِّلا
مِبًّا عَلَى الفَتحِ اقْصُرَنَّ وَطَوِّلا   وَإِذَا أَمَلْتَ القَصْرَ فَامْنَعْ وَاحْظُلا
لِمَّ عَلَى كُلٍّ بِكُلٍّ فَأْتِيَا   والعَكسُ يَجْرِي هَكَذَا لَن يَعْدِلا
بَلِّمْ بِقَصْرٍ مَعْهُ وَسِّطْ وَافْتَحَنْ   وَمَعَ التَّوَسُّطِ وَسِّطَنَّ مُقَلِّلا
والطُّولُ وَسِّطْ مَعْهُ وَافْتَحْ وَلْتُمِلْ   وَاعْطِفْ مَعَ الوَجْهَينِ مَدًّا أَطْوَلا
بِمِّلْ مَعَ القَصْرِ افْتَحَنَّ وَوَسِّطَنْ   وَأَمِلْ وَوَسِّطْ للتَّوَسُّطِ وَاعْدِلا
والطُّولُ وَجْهَا اليَاءِ مَعْهُ كِلَيْهِمَا   وَسِّطْ وَطَوِّلْ مَعْهُ تَتْبَعْ مَن تَلا
لَبِّمْ إذَا وَسَّطت ثَلِّث مَدَّه   مَعَ قَصْرِهِ افْتَح والتَّوسُّطَ قَلِّلا
وَالثَّالثُ الوَجْهَانِ فيهِ وَمُدَّ إن   تَمْدُدْ وَوَجْهَا اليَاءِ فِيهِ أُعْمِلا
مَبِّلْ بِهِ افْتَحْ قَاصِرًا وَمُوَسِّطًا   وَاتْبِعْهُ بالطُّولَيْنِ يَعْذُبْ مَنهَلا
قَلِّلْ فَوسِّطْ فِيهِمَا وَلِلينِهِ   طَوِّلْ وَطَوِّلْ فِيهِمَا وَتَرَسَّلا
لِّمْبَ عَلَى التَّوسِيطِ كَرِّرْ يَاءَهُ   وَاقْصُرْ وَمُدَّ إذَا فَتَحْتَ المُبْدَلا
وَإِذَا أَمَلْتَ بِغَيْرِ قَصْرٍ فَأْتِينِ   والطُّولُ كَرِّرْهَا عَلَيْهِ وَطَوِّلا
مَلِّبْ بِفَتْحِ مَعْهُ وَجْهَا لِينِهِ   وَامْدُدْ لِثَانٍ وَاقْصُرَنَّ لأَوَّلا
وَأَمِلْ وَوَسِّطْ وَأْتِيَنَّ بِمِثْلِهِ   وَالطُّولِ وَامْدُدْ فَامْدُدَنَّ مُكَمِّلا



التعقبات اللطاف

محمد رحيل
■ إمام خطيب . معسكر

هذه تعقبات لطاف، على نظم الأخ الفاضل محمد طالبي لشروط (لا إله إلا الله)[1].
وهي تعقبات من جهة الصناعة الشعرية، لا من جهة المضمون.
إذ نحن وهو . بحمد الله . نلتقي على العقيدة السلفيَّة الحقَّة.

◪ قوله:

وثاني الشروط في الآداب
وهو اليقين دونما ارتياب

● موضع الخلل في الشطر الأول:

وهو في الياء من قوله: «وثاني» فإنها مشددة، وبالتالي يكون عندنا في أول البيت وتد مجموع؛ وهو قوله: «وثا»، ثم وتد مفروق[2] وهو قوله «ني» فيختل الوزن.

فينبغي أن يستبدل الوتد المفروق بوتد مجموع.

● ولو قال:

«ثم الذي من بعد في الآداب»؛ لكان أسبك وأحسن.

○○○

◪ قوله في البيت السابع:

وعن أبي هريرة في الصحيح
لمسلم بلفظه الصريح

● موضع الخلل:

في قوله: «هريرة» ففيها وتد مجموع «هري» وبعدها وتد مفروق؛ فيختل الوزن.

فينبغي أن يُستبدل بوتد مجموع.

● ولو قال: «دليله مدوَّنُ الصَّحيح»؛ لأصاب الوزن الصحيح.

وقوله:

● «لمسلم» من الجوازات، ولو قال «في مسلم»؛ لأتى بالأصل واستغنى عن الجوازات.

○○○

◪ قوله:

وثالث هو الإخلاص قادر
دليله لدى النساء يجري

● موضع الخلل:

في قوله: «هو الإخلاص» فيكون عندنا وتد مجموع «هُوَ لْ» ووتد مفروق: «إخلاص».

فينبغي أن يُجعل مكان المفروق مجموعًا.

● ولو أراد ترك القيلِ لَقَالَ:

«ثالثها إخلاصنا للباري»؛ لكان أحسن.

● وأما الشطر الثاني فهو وإن كان صحيح الوزن فهو ركيك في قوله: «لدى النِّساء يَجْرِي»، ولو قال: «وفي النِّسا حُجَّتُه تُبَارِي» لكان أحسن.

○○○

◪ قوله: «وعن أبي هريرة في البخاري».

● وهذا يقال فيه مثل ما قيل في التعقب الثاني عند قوله: «وعن أبي هريرة في الصحيح».

● ولو قال:

وفي البخاري يا أخا الإيثار
من أسعد الناس لدى الغفار

لكان خيرا وأحسن.

○○○

(1) وهو نظم نشر في العدد (17).
(2) الوتد المجموع: متحركان فساكن، والوتد المفروق حرف متحرك فساكن فمتحرك.

■ قوله: «ورابع صدق لدى العوان».

● وزنه صحيح؛ لكن قوله: «لدى العوان»؛ فلدى ظرف مكان للأعيان الحاضرة المجسَّمة مبنيٌّ على السكون في محل نصب، تلازم الإضافة إلى الظاهر نحو ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ [يوسف: 25]، وتضاف إلى الضمير فتنقلب ألفُها حينئذ ياءً نحو: لَدَيْكَ كتاب ولديه مال، إذا كان المال موجودًا، فإن لم يكن كذلك؛ فلا يصحُّ، كأن تقول: لديَّ مال وهو غير حاضر[3].

● والناظم في منظومتنا هذه استعمل «لدى» في غير الأعيان الحاضرة المجسَّمة جاء التعبير بها غير فصيح، بل لا يصح.

● وقد كان يغنيه أن يقول: «رابعها في سورة العوان».

○○○

■ قوله: «وشرطٌ خامس هو القبول».

● موضع الخلل فيه:

قوله: «وشرط خامس» جاء بالوتد المجموع «وشر» بالوتد المفروق «ط خا».

● وكان الواجب أن يأتي بالوتد المجموع بدل المفروق حتى لا ينكسر الوزن.

● وفي تصحيحه يقال: «خامسها يلي هو القبول».

○○○

■ قوله: «ومن لقمان علمه يفاد».

● موضع الخلل:

في قوله: «ومن لقمان»؛ أتى بالمفروق: «لقما» بعد الوتد المجموع.

● وهو لا يصح في الرجز، ولا هو من الجوازات.

● وإذ أعوزه اللفظ كان يستطيع أن يخرج دليل الانقياد من سورة البقرة، فيقول: «من سورة العوان يستفاد»، وذلك إشارة إلى قوله سبحانه: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة].

○○○

■ قوله: «كفر بكل ند للديان».

● وموضع الخلل:

في قوله: «بكل ند للديان» أتى بالوتد المجموع في قوله: «بكل لـ ند» ثم بالمفروق: «دن لدديان» بالكتابة العروضية، وفك التشديد وكَتْب التنوين.

● وكان عليه أن يأتي بالمجموع بدل المفروق.

● كقولنا في تصحيح هذا الشطر: «كفرٌ بكلٍّ ما سوى الرحمان».

○○○

■ قوله: «وقد سمَّاه سلَّم الوُصُول».

● وموضع الخلل فيه عند قوله: «سمَّاه».

● هذا وتدٌ مفروق بعد مجموع «وقد سمماه».

وكل أخطائه في هذه المنظومة من هذا النوع.

وقال هذا البيت الأخير مُحاكاة لقول الحكمي: «سميته بسلم الوصول»، فأتي فيه بالمجموع بعد المجموع فأصاب، ولو قال أخونا: «وَسَّمَهُ بسلَّم الوصول» لما اختل الوزن، و«وسَّم» تفعُّل من الوسم وهي العلامة.

○○○

■ قوله:

والحمد للقوي لانتهاء
كما سميته عند ابتداء

● الشطر الأول صحيح الوزن إلا أنه عدى الانتهاء باللام التعليلية.

والصواب أن يعدَّى بـ«على» كما فعل الحكمي: «والحمد لله على انتهائي».

● وأما الشطر الثاني؛ فأتى فيه بالمفروق بعد المجموع كعادته وقد مر التنبيه عليه[4].

● وتصحيح البيت أن يقال:

أحمده جلَّ على الإكمال
كما حمدت في ابتداء القال

○○○

هذا ما أردت التنبيه عليه.

وأشكر أخانا محمد طالبي على هذا النظم الذي نظم فيه شروط كلمة التوحيد.

وهذا يدل على اهتمامه بهذا الأصل الذي اتفقت عليه دعوة الأنبياء والرسل.

ولا شك أن التوحيد هو أغلى ما صُرفت له الهمم، ووصل به العباد إلى القمم، وهو حق الله على العبيد، من جاء به فقد سلك الطريق الرشيد، ومن أعرض عنه وتولى، فقد هلك وخسر.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة].

○○○

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

---

(3) «المجمع الوافي في النحو العربي» تأليف د. علي توفيق الحمد ويوسف جميل باشتراك بينهما (ص277) ط. دار الكتب الوطنية آ بنغازي/ط1 (ت1992م).

(4) ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الحجر].

د/سعود الدعجان
■ عضو هيئة التدريس بكلية الدعوة وأصول الدين بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية

اعرفوا أنسابكم.. تصلوا أرحامكم

إنَّ مِنْ أهداف الإسلام وقواعده العظيمة: الدَّعوة إلى الاجتماع والاتِّفاق، والتَّحذير من الاختلاف والافتراق، قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [سورة آل عمران].



وتوعَّد بالعذاب على الاختلاف والتَّفرُّق، فقال جلَّ وعلا: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥)﴾ [سورة آل عمران].

واقتضت حكمة الله أن جعل النَّاس شعوبًا وقبائل ليتعارفوا ويتآلفوا؛ فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ﴾ [الحجرات: 13].

وأخبر أنَّ التَّفاضل بين الشُّعوب والقبائل إنَّما يكون بالتَّقوى حيث قال سبحانه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ﴾ [الحجرات: 13].

وأكَّد ذلك النَّبيُّ ﷺ بقوله: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ! أَلاَ إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ أَلاَ لاَ فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ وَلاَ لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ وَلاَ لأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ وَلاَ أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلاَّ بِالتَّقْوَى**»(1).

وأخبر ﷺ أَنَّ النَّاس كلَّهم يرجعون إلى آدم عليه السلام، وآدم مخلوق من التُّراب، وبناءً على ذلك حذَّر من الافتخار بالآباء؛ فقال ﷺ: «**إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الجَاهِلِيَّةِ وَفَخْرَهَا بِالآبَاءِ، مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ وَفَاجِرٌ**

(1) حديث صحيح، رواه أحمد (2389) وغيره.

شقيٌّ، أنتم بنو آدم وآدم من تراب، ليدعنَّ رجالٌ فخرهم بأقوام إنَّما هم فحمٌ من فحم جهنَّم أو ليكوننَّ أهون على الله من الجعلان الَّتي تدفع بأنفها النَّتن»(2).

وقال ﷺ: «إنَّ أنسابكم هذه ليست بسبابٍ على أحد، وإنَّما أنتم ولد آدم طفُّ الصَّاع لم تملؤوه، ليس لأحد على أحد فضلٌ إلَّا بالدين، أو عملٍ صالحٍ، حسب الرَّجل أن يكون فاحشًا بذيًّا بخيلًا جبانًا»(3).

وفي رواية: «النَّاس لآدم وحوَّاء كطفِّ الصَّاع لم يملؤوه، إنَّ الله لا يسألكم عن أحسابكم ولا عن أنسابكم يوم القيامة: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾»(4).

النَّاس من جهة التَّمثيل أكفاء
أبوهم آدم والأم حوَّاء
إن كان لهم في أصلهم شرف
يتفاخرون به فالطين والماء

ولو كان النَّسب الشَّريف وحده من غير تقوى ينفع صاحبه لنفع قرابة النَّبيِّ ﷺ الَّذين كانوا على الكفر وتُوُعِّدوا بالعذاب الشَّديد كأبي لهب وأبي طالب أعمام النَّبيِّ ﷺ، بل إنَّه ﷺ خاطب قرابته وحذَّرهم من الاعتماد على النَّسب وترك العمل فقال: «يا بني عبد مناف! لا أغني عنكم من الله شيئًا، يا عبَّاس بن عبد المطَّلب لا أغني عنك من الله شيئًا، ويا صفيَّة عمَّة رسول الله! لا أغني عنك من الله شيئًا، ويا فاطمة بنت رسول الله! سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئًا»(5).

فالنَّسب وحده من غير عمل لا ينفع صاحبه عند الله، قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي

(2) حديث حسن، رواه أبو داود (5116) والترمذي (3955).
(3) حديث صحيح، رواه أحمد (17313).
(4) رواه ابن جرير في «تفسيره» (21/387).
(5) متَّفق عليه: البخاري (2753، 4771) ومسلم (206).

الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١)﴾ [المؤمنون].

وقال ﷺ: «من بطَّأ به عمله لم يسرع به نسبه»(6).

بل إنَّه ﷺ جعل الطَّعن في النَّسب من أعمال الكفر، وذلك بقوله: «اثنتان في النَّاس هما بهم كفر: الطَّعن في النَّسب والنِّياحة على الميِّت»(7).

ووصف المسلم الَّذي يعيِّر غيره بلونه أنَّ فيه من صفات الجاهليَّة وذلك عندما عيَّر أبو ذر رضي الله عنه بلالاً رضي الله عنه بأمِّه فقال له: يا ابن السَّوداء! فلمَّا بلغ ذلك رسول الله ﷺ زجره وقال له: «إنَّك امرؤ فيك جاهليَّة»(8).

لعمرك ما الإنسان إلَّا بدينه
فلا تترك التَّقوى اتِّكالاً على النَّسب
فقد رفع الإسلام سلمان فارس
وقد وضع الشرك النَّسيبَ أبا لهب

فلا ينبغي أن يكون القصد من الاشتغال بالنَّسب التَّفاخر به والتَّعصُّب له؛ لأنَّ ذلك من أعمال الجاهليَّة الَّتي نهى عنها النَّبيُّ ﷺ بقوله: «من قُتل تحت راية عُمِّيَّة يدعو عصبيَّة أو ينصر عصبيَّة، فقتلةٌ جاهليَّة»(9).

وإنَّما ينبغي أن يكون القصد التَّواصل بين أبناء العمومة الَّذين يتَّصل نسبهم بالقبيلة الواحدة حيث إنَّ هذا هو الهدف الأسمى والأمر العظيم الَّذي من أجله رغب النَّبيُّ ﷺ، ودعا إلى تعلُّم النَّسب، ومعرفته ألا وهو صلة الرَّحم، قال ﷺ: «اعرفوا أنسابكم تصلوا أرحامكم»(10).

(6) رواه مسلم (2699).
(7) رواه مسلم (67).
(8) رواه البخاري (30، 6050) ومسلم (1661) وغيره.
(9) رواه مسلم (1850).
(10) حديث صحيح، أخرجه الحاكم (4/161) وغيره.

وصلة الرَّحم واجبة على كلِّ مسلم يؤجر عليها في الآخرة ويجازى عليها في الدُّنيا بمحبَّة الأهل وكثرة المال وطول العمر، قال ﷺ: «تعلَّموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم فإنَّ صلة الرَّحم محبَّةٌ في الأهل مثراةٌ في المال منسأةٌ في الأثر»(11).

وفي المقابل ليحذر المسلم من التَّقصير في صلة الرَّحم والوقوع في القطيعة، فإنَّ ذلك يعتبر من كبائر الذُّنوب الَّتي يعجل لصاحبها العقوبة في الدُّنيا قبل عذاب الآخرة إذا لم يتب، قال ﷺ: «ما من ذنب أجدر أن يعجِّل الله لصاحبه العقوبة في الدُّنيا مع ما يدَّخر له في الآخرة، من البغي وقطيعة الرَّحم»(12).

وهذه العقوبة المعجَّلة في الدُّنيا جاءت في القرآن والسُّنَّة مفصَّلة كما يأتي:

ـ أوَّل هذه العقوبات: استحقاقه للعنة الله مع الصَّمم وعمى البصر، قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ (٢٣)﴾ [محمد].

ـ العقوبة الثَّانية: أنَّ الله تعالى يقطع الصِّلة بينه وبين من يقطع رحمه، قال ﷺ: «قال الله عز وجل: أنا الرَّحمن وأنا خلقت الرَّحم، واشتققت لها من اسمي، فمن وصلها وصلته ومن قطعها بتته»(13).

ومن لوازم قطع الصِّلة بين العبد وربِّه أنَّه إذا دعا فإنَّ الله لا يستجيب له.

ـ أنَّه متوعَّد بدخول النَّار، قال ﷺ: «لا يدخل الجنَّة قاطع»(14)، أي قاطع

(11) حديث صحيح، رواه الترمذي (1979) وأحمد (8868).
(12) رواه الترمذي (2511) وأبوداود (4906) وصحَّحه الألباني.
(13) رواه الترمذي (2031) وأبو داود (1694) وصححه الألباني في «صحيح الترهيب والترغيب» (2528).
(14) رواه البخاري (5984) ومسلم (2556).



رحم، وليس معنى عدم دخول الجنَّة أنَّه لا يدخلها أبدًا، وأنَّه يدخل النَّار ويخلد فيها، إنَّما المقصود أنَّه لا يدخل الجنَّة مع أوَّل من يدخلها، وإنَّما يعذَّب على قدر ذنبه ثمَّ يخرج منها، وهذا معتقد أهل السُّنَّة والجماعة في كبائر الذُّنوب عمومًا، وهو أنَّ أصحابها إذا ماتوا من غير توبة فإنَّهم تحت مشيئة الله، إن شاء عفا عنهم برحمته وفضله وأدخلهم الجنَّة من غير عذاب، وإن شاء عذَّبهم في النَّار بعدله على قدر ذنوبهم ثمَّ يخرجهم منها بشفاعة الشَّافعين فيدخلهم الجنَّة، فهذا معنى قوله: **«لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ قَاطِعٌ»**.

- العقوبة الرَّابعة: عدم قبول عمل القاطع.

قال ﷺ: **«إنَّ أَعْمَالَ بَنِي آدَمَ تُعْرَضُ كُلَّ خَميسٍ لَيْلَةَ الجُمُعَةِ فَلاَ يُقْبَلُ عَمَلَ قَاطِعِ رَحِمٍ»**[15]، وفي رواية: **«تُعْرَضُ أَعْمَالُ العِبَادِ يَوْمَ الاثْنَيْنِ وَيَوْمَ الخَمِيسِ فَيُغْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ مُسْلِمٍ لا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا إلاَّ رَجُلاً كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءُ، فَيُقَالُ: انْظُرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا، انْظُرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا، انْظُرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا»**[16].

بل إنَّ الله تعالى حرَّم التَّهاجر بين المسلم وبين أخيه الَّذي ليس بينهما قرابة، وذلك بقوله ﷺ: **«لا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاثٍ»**[17]، فإذا زاد على ذلك وبلغ سنة فكأنَّه سفك دمه، قال ﷺ: **«مَنْ هَجَرَ أَخَاهُ سَنَةً فَهُوَ كَسَفْكِ دَمِهِ»** رواه أبو داود (4915) وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح التَّرغيب» (2762).

ولا بدَّ من التَّنبيه إلى أنَّ الصِّلة لا تكون بالمجازاة، أي: لا يقول المسلم عن صلة قريبه إنْ سأل عنِّي سألت عنه، وإن لم يسأل عنِّي لم أسأل عنه، وإن زارني زرته وإن لم يزرني لم أزره، لقوله ﷺ: **«لَيْسَ الوَاصِلُ بِالْمُكَافِئِ، وَلَكِنِ الوَاصِلُ الَّذِي إِذَا قُطِعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَهَا»**[18].

وقد جعل الله معينًا وظهيرًا للمسلم الَّذي يصل أرحامه مع أنَّهم يقطعونه، فقد جاء رجلٌ إلى النَّبيِّ ﷺ فقال: يا رسول الله! إنَّ لي قرابة أَصِلُهم ويقطعوني، وأحسن إليهم ويسيئون إليَّ، وأحلم عنهم ويجهلون عليَّ؟ فقال ﷺ: **«لئِنْ كُنْتَ كَمَا قُلت فكَأَنَّمَا تُسِفُّهُمُ المَلَّ، وَلا يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللهِ ظَهِيرٌ عَلَيْهِمْ مَا دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ»**[19].

كما أنَّه ينبغي السَّعي في الإصلاح بين المسلمين عمومًا وبين الأقارب على وجه الخصوص؛ لما في الإصلاح من الأجر العظيم الَّذي يفضل على الصَّلاة والصِّيام والصَّدقة، ولما في الخصومة والقطيعة من المفاسد العظيمة على الدِّين قال ﷺ: **«أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلاَةِ وَالصَّدَقَةِ؟»** قالوا: بلى؟! قال: **«إِصْلاَحُ ذَاتِ البَيْنِ، فَإِنَّ فَسَادَ ذَاتِ البَيْنِ هِيَ الحَالِقَةُ»**[20].

ولأهميَّة الإصلاح أجاز النَّبيُّ ﷺ للمصلح أن يكذب مع أنَّ الكذب محرَّم، فقال: **«لَيْسَ بِالكَاذِبِ مَنْ أَصْلَحَ بَيْنَ النَّاسِ فَقَالَ خَيْرًا أَوْ نَمَى خَيْرًا»**[21].

أسأل الله - جلَّ وعلا - بأسمائه الحسنى وصفاته العلا أن يصلح أحوال المسلمين، وأن يؤلِّف بين قلوبهم، وأن يبصِّرهم بدينهم، ويهديهم سواء السَّبيل، وأن يغفر لنا ويرحمنا، ويتجاوز عن سيِّئاتنا.

وصلَّى الله وسلَّم وبارك على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(15) رواه أحمد في «المسند» (10272) وإسناده صحيح وأصله في مسلم.
(16) رواه مسلم (2565).
(17) رواه البخاري (6237) ومسلم (2560).
(18) رواه البخاري (5991).
(19) رواه مسلم (2558).
(20) رواه الترمذي (2509) وأبو داود (4919) وصحَّحه الألباني في «صحيح الترغيب» (2814).
(21) رواه أبو داود (4920) وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (2815).

الاعتداء في الدعاء



- مفهومه..
- أنواعه..
- أمثلته..

عز الدين رمضاني

رئيس التحرير

منزلة الدعاء وفضله

الدُّعاء من أجلِّ العبادات وأعظم الطَّاعات وأنفع القربات، وهو زاد المؤمنين المتَّقين، وعنوان التَّذلُّل والخضوع لربِّ العالمين، نوَّهت به النُّصوص الشَّرعيَّة، وبيَّنت مكانته وفضله وعظم شأنه، وأمرت به وحثَّت عليه، وحذَّرت من تركه والاستكبار عنه، وقد سمَّاه الله في القرآن عبادة في أكثر من آية، كقوله سبحانه ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠﴾ [غافر]، وسمَّاه دينًا كما في قوله جلَّ وعلا: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [غافر: 14].

وقال النَّبيُّ ﷺ: «**الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَةُ**، ثمَّ قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠﴾»(1).

وقال أيضًا ﷺ: «**لَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَمَ عَلَى اللهِ تَعَالَى مِنَ الدُّعَاءِ**»(2).

فهذه النُّصوص وغيرها كثير ممَّا ورد في شأن الدُّعاء تدلُّ على كرمه وعظم منزلته عند الله، وأنَّه يمثِّل لبَّ العبادة وروحها، والعبادة هي الغاية الَّتي خلق الخلق لأجلها وأوجدوا لتحقيقها(3).

(1) الترمذي (3247)، وصححه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» (1757).

(2) الترمذي (3370) وابن ماجه (3829)، وحسنه الألباني في «صحيح الترمذي».

(3) «فقه الأدعية والأذكار» لعبد الرزاق البدر بتصرف.

معنى الاعتداء في الدّعاء

الاعتداء بمفهومه العام هو «تجاوزٌ في الشَّيء وتقدُّمٌ لما ينبغي أن يقتصر عليه، والتَّعدِّي: تجاوز ما ينبغي أن يُقتصر عليه، والاعتداء مشتقٌّ من العدوان»(4).

وأمَّا معنى الاعتداء المتعلِّق بالدُّعاء، فقد تقاربت أقوال أهل العلم في بيانه وذكر حدِّه عند تفسيرهم لقول الله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ۝٥٥﴾ [الأعراف].

فقال ابن جرير رحمه الله في «تفسيره» (8/207): «إنَّ ربَّكم لا يحبُّ من اعتدى فتجاوز حدَّه الَّذي حدَّه لعباده في دعائه ومسألته ربَّه ورفعه صوته فوق الحدِّ الَّذي حدَّ لهم في دعائهم إيَّاه ومسألتهم وفي غير ذلك من الأمور».

وقال بكر بن عبد الله أبو زيد في «تصحيح الدُّعاء» (ص41 و42): «والاعتداء في الدُّعاء هو تجاوز الحدِّ الَّذي حدَّه الشَّرع المطهَّر فيه، فيحصل في الدُّعاء من الخلل بحسب ما يحصل من التَّجاوز قوَّةً وضعفًا، من الشِّرك ووسائله، من البدع والمحدثات».

(4) «معجم مقاييس اللغة» (4/349) بتصرف.

حكم الاعتداء في الدّعاء

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في «الفتاوى الكبرى» (5/338):

«ويحرم الاعتداء في الدُّعاء لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ۝٥٥﴾، وقد يكون الاعتداء في نفس الطَّلب، وقد يكون في نفس المطلوب».

وقال الشَّيخ بكر أبو زيد في «تصحيح الدُّعاء» (ص61) عند استدلاله بالآية على حرمة الاعتداء: «فهذا يعمُّ النَّهي عن كلِّ اعتداء، وتجاوز في الدُّعاء، ومن شموله: الابتداع في الدُّعاء على أيِّ وجه كان في زمان أو مكان أو مقدار أو أداء».

ووجه الدَّلالة من هذه الآية: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ۝٥٥﴾ أنَّها تضمَّنت نهيًا عن الاعتداء، وهو ـ أي الاعتداء ـ وإن كان عامًّا يشمل كلَّ نوع من الاعتداء، إلاَّ أنَّه لمَّا جاء عقب الأمر بالدُّعاء في قوله: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ﴾ دلَّ دلالة خاصَّة على المنع من الاعتداء في الدُّعاء.

قال القرطبي في «تفسيره» (7/226): «يريد في الدُّعاء وإن كان اللَّفظ عامًّا، والمعتدي هو المجاوز للحدِّ ومرتكب الحظر».

ونقل الطَّبري في تفسيره للآية عن ابن عبَّاس قوله: «في الدُّعاء ولا في غيره».

وقال شيخ الإسلام في «المجموع» (15/23) في معرض كلامه على هذه الآية: «وعلى هذا فتكون الآية دالَّة على شيئين:

أحدهما: محبوب للرَّبِّ سبحانه وهو الدُّعاء تضرُّعًا وخفية.

الثَّاني: مكروه له مسخوط وهو الاعتداء.

فأمر بما يحبُّه وندب إليه، وحذَّر ممَّا يبغضه وزجر عنه بما هو أبلغ طرق الزَّجر والتَّحذير وهو لا يحبُّ فاعله، ومن لا يحبُّه الله فأيّ خير يناله؟».

ومن النُّصوص الدَّالَّة على تحريم الاعتداء في الدُّعاء: ما ثبت عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**إِنَّهُ سَيَكُونُ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِي الطَّهُورِ وَالدُّعَاءِ**»[5].

فمجيء الحديث بصيغة الإخبار دليلٌ على وقوع ذلك، والذَّمّ لمن يفعله والتَّحذير من مغبَّة التَّلبُّس به.

قال المناوي في «فيض القدير» (4/130): «أي يتجاوزون الحدود، يدعون بما لا يجوز، أو يرفعون الصَّوت به، أو يتكلَّفون السَّجع».

أنواع الاعتداء في الدّعاء وأمثلته

الاعتداء في الدُّعاء يشتمل على أنواع كثيرة، وهي ما بين المكروه والمحرَّم، ويقع في الألفاظ كما يقع في المعاني، وفي الأداء وفي الطَّريقة، وسنعرض أنواعه وأمثلته حسب الأهميَّة والخطورة.

الأوَّل ـ الشِّرك بالله تعالى في الدُّعاء:

وهو أعظم العدوان؛ لأنَّه وضع العبادة في غير موضعها، وهذا النَّوع من العدوان داخل دخولاً أوَّليًّا في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ۝٥٥﴾.

قال شيخ الإسلام في «المجموع» (15/23): «فهؤلاء أعظم المعتدين عدوانًا، فإنَّ أعظم العدوان الشِّرك، وهو وضع العبادة في غير موضعها، فهذا العدوان لابدَّ أن يكون داخلاً في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ۝٥٥﴾».

ومن صوره: دعاء غير الله تعالى، سواء دعاه مستقلاً أو دعاه ليكون واسطة، قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، وهذا النَّوع من الاعتداء يقع في دعاء الثَّناء والعبادة كما يقع في دعاء الطَّلب والمسألة.

الثَّاني: الابتداع في الدُّعاء:

قال شيخ الإسلام في «المجموع» (15/23): «ومن الاعتداء أن يعبده بما لم يشرع، ويثني عليه بما لم يُثنِ به على نفسه، ولا أذن فيه، فإنَّ هذا اعتداء في دعائه: الثَّناء والعبادة، وهو نظير الاعتداء في دعاء المسألة والطَّلب».

وقد مرَّ أنَّ الدُّعاء عبادة، وهي توقيفيَّة، فمن زاد فيها أو أنقص منها على وجه التَّعبُّد فقد وقع في الاعتداء وعبد الله بما لم يأمره به، وسأله بما لم يشرعه له.

والابتداع في الدُّعاء يكون أحيانًا بزيادة ألفاظ على الدُّعاء المأثور، وأحيانًا يكون بإحداث دعاء لم يثبت في السُّنَّة، ولكلٍّ منهما أمثلة كثيرة.

ويكثر هذا النَّوع من الاعتداء في الأدعية المحدَثة المبتَدَعة الَّتي أنشأها بعض المتكلِّفين، وكتبها بعض المتخرِّصين دون رجوع إلى الكتاب والسُّنَّة، ودون اعتبارٍ لدعوات الأنبياء والمرسلين، وأدعيةِ سيِّد الأوَّلين والآخرين.

قال أبو بكر الطُّرطوشي رحمه الله: «ومن العجب العجاب أن تُعرِض عن الدَّعوات الَّتي ذكرها الله في كتابه عن الأنبياء والأولياء والأصفياء مقرونةً بالإجابة، ثمَّ تنتقي ألفاظ الشُّعراء والكُتَّاب، كأنَّك قد دعوت في زعمك بجميع دعواتهم ثمَّ استعنت بدعوات مَن سواهم»[6].

والأدهى في تلك الدَّعوات أنَّها متضمِّنة لألفاظ كُفريَّةٍ، وتوسُّلات بدعِيَّةٍ، واستغاثات شِركيَّة.

قال القرافي في «الفروق» (4/264 ـ 265) بعد أن ذكر أنَّ الأصل في الدُّعاء التَّوقُّف، وذكر أنواعًا من هذه الأدعية

(5) أبو داود (96)، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود».

(6) «الفتوحات الربانية» لابن علان (1/17).

الكُفريَّة: «إذا تقرَّر هذا: فينبغي للسَّائل أن يحذر هذه الأدعية وما يجري مجراها حذرًا شديدًا؛ لما تؤدِّي إليه من سخط الدَّيَّان والخلود في النِّيران وحبوط الأعمال وانفساخ الأنكحة واستباحة الأرواح والأموال، وهذا فسادٌ كلُّه يتحصَّل بدعاءٍ واحدٍ من هذه الأدعية ولا يرجع إلى الإسلام...».

الثَّالث: سؤال الله تعالى ما لا يجوز له سؤاله:

وذلك لأنَّ الاعتداء كما يقع من جهة الطَّلب بأن يستعمل صيغًا منافيةً للأدب مع الله، أو فيها إخلالٌ من جهة اللَّفظ أو المعنى، يقع أيضًا في جهة المطلوب وهو الأكثر.

قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» (378/8): «والاعتداء في الدُّعاء يقع بزيادة الرَّفع فوق الحاجة أو بطلب ما يستحيل حصوله شرعًا أو بطلب معصيةٍ أو يدعو بما لم يؤثَر».

ولهذا جعل العلماء ـ تجنُّبًا للوقوع في مثل هذا النَّوع من الاعتداء ـ من شرط المدعوِّ فيه أن يكون من الأمور الجائزة شرعًا: طلبًا وفعلاً.

قال القرطبي في «تفسيره» (311/2): «ومن شرط المدعوِّ فيه أن يكون من الأمور الجائزة الطَّلب والفعل شرعًا».

ومن صور هذا النَّوع من الاعتداء:

ـ سؤال ما لا يليق بالعبد الدَّاعي: كأن يسأل الله بأن يكون ملَكًا أو يسأله بلوغ منازل الأنبياء ودرجاتهم، وهذا ليس من صالح الدُّعاء، ولو كان الدَّافع إليه محبَّة الملائكة والأنبياء ومحبَّة ما هم عليه من التَّفضيل والتَّكريم.

قال شيخ الإسلام في «بيان تلبيس الجهمية» (352/2): «كما يسأل الرَّجل ما لا يصلح، وهو من الاعتداء في الدُّعاء، مثل أن يسأل منازل الأنبياء ونحو ذلك، فإنَّ الله قادر على ذلك، ولكن مسألة هذا عدوان».

ويتجلَّى هذا العدوان في أنَّ المرء لا يمكن أن يبلغ بعمله ـ وإن بلغ في الحسن أقصاه ـ منزلة ملَك أو نبيّ.

ويقرب من هذا من يسأل الممكن لكنَّه بعيد عن أسبابه، متقاعس عن بذل ما يوصل إليه، كأن يسأل الله بلوغ منزلة عالم من العلماء أو عابد من العبَّاد، ولا يُعرف عنه جدٌّ وتحصيلٌ في علم أو عمل.

ذكر ابن القيِّم في «فوائده» (ص260): «أنَّ رجلاً قال بحضرة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: ما أحبُّ أن أكون من أصحاب اليمين، أحبُّ أن أكون من المقرَّبين، فقال عبد الله: لكن ها هنا رجلٌ ودَّ أنَّه إذا مات لم يُبعث، يعني نفسه».

ـ سؤال الله تعالى المعونة على فعل المحرَّمات وغشيان المعاصي وتيسير الأسباب الموصلة إليها:

وذلك لأنَّ الله كره للمؤمنين الكفر والفسوق والعصيان، فلا يليق بهم أن يطلبوا منه ما حرَّمه عليهم وبغَّضه لهم، ولو فعلوا لحُرموا إجابة الدُّعاء، وكان ذلك منهم اعتداءً وتجرُّؤًا على الله.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**لاَ يَزَالُ يُسْتَجَابُ لِلْعَبْدِ مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ**»[7].

قال القرطبي في «الجامع» (311/2): «فيدخل في الإثم كلُّ ما يأثم به من الذُّنوب ويدخل في الرَّحم جميع حقوق المسلمين ومظالمهم».

ـ الدُّعاء على مَنْ لا يستحقُّه:

لما في ذلك من الظُّلم والعدوان الَّذي حرَّمه الله، كالدُّعاء على النَّفس والأهل والأموال بالهلاك أو الفساد أو الضَّياع، قال النَّبيُّ ﷺ: «**لاَ تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَلاَ تَدْعُوا عَلَى أَوْلاَدِكُمْ، وَلاَ تَدْعُوا عَلَى أَمْوَالِكُمْ، لاَ تَوَافِقُوا مِنَ اللهِ سَاعَةً يُسْأَلُ فِيهَا عَطَاءٌ فَيَسْتَجِيبَ لَكُمْ**»[8].

ومن هذا: أن يدعو المرء على نفسه بالموت لضرٍّ نزل به، أو يسأل ربَّه أن يعجِّل له العقوبة في الدُّنيا فَرَقًا من عذاب الآخرة، ولهذا لمَّا عاد النَّبيُّ ﷺ رجلاً من المسلمين قد خَفَتَ فصار مثل الفرخ، قال له: «**هَلْ كُنْتَ تَدْعُو بِشَيْءٍ أَوْ تَسْأَلُهُ إِيَّاه؟**» قال: نعم، كنت أقول: اللَّهمَّ ما كنت معاقبي به في الآخرة فعجِّله لي في الدُّنيا، فقال رسول الله ﷺ: «**سُبْحَانَ الله، لاَ تُطِيقُهُ ـ أَوْ لاَ تَسْتَطِيعُهُ ـ، أَفَلاَ قُلْتَ: اللَّهُمَّ آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**، قال: فدعا الله له، فشفاه»[9].

ومنه ـ أيضًا ـ الدُّعاء على المؤمنين باللَّعنة والخزي ونحو ذلك، فقد نقل البغوي في «تفسيره» (166/2) عن عطيَّة في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝٥٥﴾: «هم الَّذين يدعون على المؤمنين فيما لا يحلُّ، فيقولون: اللَّهمَّ أخزهم، اللَّهمَّ العنهم».

وقال النَّووي في «الأذكار» (515): «فصل: لو دعا مسلم على مسلم فقال: اللَّهمَّ اسلُبْه الإيمان، عصى بذلك، وهل يكفر الدَّاعي بمجرَّد هذا الدُّعاء؟ فيه وجهان لأصحابنا حكاهما القاضي حسين من أئمَّة أصحابنا في الفتوى، أصحُّهما: لا يكفر، وقد يحتجُّ لهذا بقول الله تعالى إخبارًا عن موسى ﷺ: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ

(7) مسلم (2735).

(8) مسلم (3009).

(9) مسلم (2688).

﴿فَلَا يُؤْمِنُوا...﴾ الآية، وفي هذا الاستدلال نَظَرٌ، وإن قلنا: إنَّ شرع من قبلنا شرع لنا».

ومن الأدعية الَّتي نسمعها كثيرًا في خطب الجمعة ودعاء القنوت والَّتي فيها هذا النَّوع من الاعتداء قول الدَّاعي: «اللَّهُمَّ أَبْرِم لهذه الأمَّة أمر رشد يُعزُّ فيه أهل **طاعتك ويُذلُّ فيه أهل معصيتك**».

والأولى أن يُستبدل لفظ «يُذلّ» بـ «يُهدى»؛ لأنَّه لا أحد من المسلمين يسلم من معصية الله، فكأنَّه دعاء بالذِّلَّة على أهل الإسلام جميعًا.

ومن هذا أيضًا: أن يسأل الدَّاعي الله أن يرحمه دون غيره من المسلمين لما في ذلك من تحجير رحمة الله وتضييقها، ولهذا لمَّا قال الأعرابي: «اللَّهمَّ ارحمني ومحمَّدًا، ولا ترحم معنا أحدًا» قال له النَّبيُّ ﷺ: «**لَقَدْ حَجَّرْتَ وَاسِعًا**»[10].

وهناك نكتة بديعة ذكرها شيخ الإسلام في معرض حديثه عن دعاء النَّبيِّ ﷺ وفيه «**وَانْصُرْنِي عَلَى مَنْ بَغَى عَلَيَّ**»، قال رَحِمَهُ اللَّهُ في «الرَّدِّ على البكري» (1/207): «دعاء عادل لا دعاء معتدٍ يقول: انصرني على عدوِّي مطلقًا».

وعليه: فالدُّعاء على الكفَّار بالاستئصال والإبادة نوع من الاعتداء في الدُّعاء، جاء في فتوى «اللَّجنة الدَّائمة» (24/276): «وقول الكاتب: «اللَّهمَّ عليك بالكفَّار والمشركين واليهود، اللَّهمَّ لا تُبقِ أحدًا منهم في الوجود، اللَّهمَّ أَفنِهم فناءك عادًا وثمود»، والدُّعاء بفناء كلِّ الكفَّار اعتداء في الدُّعاء؛ لأنَّ الله قدَّر وجودهم وبقاءهم لحكمة، والله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد».

- سؤال الله بما يناقض شرعه وأمره أو خبره أو حكمته:

قال ابن القيِّم في «بدائع الفوائد» (3/13): «فكلُّ سؤال يناقض حكمة الله أو يتضمَّن مناقضة شرعه وأمره، أو يتضمَّن خلاف ما أخبر به فهو اعتداء لا يحبُّه الله ولا يحبُّ سائله»، لما في ذلك من إكذاب الله تعالى لنفسه، وتجاوز إلى ما هو من خصائص الرَّبِّ سبحانه وفعله، وتلاعب بالشَّرع بردِّ ما قضاه الله من أمره الشَّرعي والكوني، كالدُّعاء للكفَّار بالمغفرة والرَّحمة لنهي الله تعالى نبيَّه ﷺ وسائر المؤمنين عنه، أو سؤال الله العافية مدى الدَّهر، أو سؤاله العصمة من الذُّنوب، أو الدُّعاء بالخلود في الدُّنيا، كأن يقول: «اللهم لا تُمتني»، أو الدُّعاء لغيره ممَّن يحبُّ بقوله: «أدام الله أيامك»[11]، أو الدُّعاء برفع لوازم البشريَّة من الحاجة إلى الطَّعام أو الشَّراب، أو أن يهب له ولدًا من غير زوجة، أو الدُّعاء بأن لا يقيم السَّاعة، أو الدُّعاء بأن لا يُحوجه لأحد من خلقه[12]، أو أن لا يبتليه الله إلاَّ بالَّتي هي أحسن[13].

ومن الأدعية المنتشرة عند نزول المصائب: «اللَّهمَّ إنَّا لا نسألك ردَّ القضاء ولكن نسألك اللُّطف فيه»، ومثل هذا الدُّعاء محرَّم لا يجوز، وذلك لأنَّ الدُّعاء يردُّ القضاء كما جاء في الحديث، وفيه نوع تحدٍّ لله أيضًا بقوله: اقضِ ما شئتَ ولكن اللُّطف[14].

رابعًا. سوء الأدب في دعاء الله ومناجاته:

وذلك بأن يخاطب الدَّاعي ربَّه على حالة أو هيئة لا تليق بمقام الدُّعاء ومن يدعوه، أو يأتي بألفاظ وجملٍ تنبئ عن سوء أدب وقلَّة حياء وركاكة عقل.

وصور هذا النَّوع من الاعتداء كثيرة، ومنها:

- رفع الصَّوت بالدُّعاء فوق الحاجة:

لأنَّ الأصل في ذلك الإسرار بالمناجاة كما قال تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾.

قال ابن المنير رَحِمَهُ اللَّهُ: «وحسبك في تعيّن الإسرار في الدُّعاء اقترانه بالتَّضرُّع في الآية، فالإخلال به كالإخلال بالضَّراعة إلى الله في الدُّعاء، وإنَّ دعاءً لا تضرع فيه ولا خشوع لقليل الجدوى، فكذلك دعاء لا خفية ولا وقار يصحبه»[15].

وقد فسَّر بعض السَّلف قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝٥٥﴾ بالَّذين يرفعون أصواتهم رفعًا زائدًا على الحاجة، منهم عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج المكي (ت 150هـ) قال: «من الاعتداء رفع الصَّوت والنِّداء بالدُّعاء والصِّياح»[16].

- دعاء الله من غير تَضرُّع ولا إظهار للتَّذلُّل والخضوع:

قال شيخ الإسلام في «المجموع» (15/23): «ومن العدوان أن يدعوَه غير متضرِّع، بل دعاء هذا كالمستغني المُدَلِّي على ربِّه، وهذا من أعظم الاعتداء لمنافاته لدعاء الذَّليل، فمن لم يسأل مسألة مسكين متضرِّع خائف فهو معتدٍ».

- الدُّعاء بتكثير الكلام وتفصيله ممَّا لا لزوم له:

ومن ذلك التَّطويل في تشقيق العبارات، وتنميق الألفاظ، والمبالغة في ذكر التَّفاصيل،

---

(10) رواه البخاري (6010).

(11) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ عن هذه العبارة: «من الاعتداء في الدُّعاء؛ لأنَّ دوام الأيَّام محال مناف لقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾ وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِي۟ن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ۝٣٤﴾». [«المناهي اللفظية» رقم (417)].

(12) سمع الإمام أحمد رجلا يقول هذا الدعاء فقال: «هذا رجل تمنى الموت، والأسلم أن يقول: لا تحوجني إلى شرار خلقك» [«معجم المناهي اللفظية» (135)]

(13) «معجم المناهي اللفظية» (135).

(14) انظر: فتوى الشيخ ابن باز في «مجلة الدعوة» (1441).

(15) «الانتصاف على حاشية الكشاف» (2/110).

(16) «معالم التنزيل» للبغوي (2/166).

وقـد عدَّه سـعد بن أبـي وقَّاص رضي الله عنه من الاعتـداء في الدُّعـاء؛ روى أبـو داود[17] وغيره عن ابن سعد ابن أبي وقَّاص أنَّه قال: «سـمعني أبي وأنا أقول: اللَّهمَّ إنِّي أسـألك الجنَّـة ونعيمها وبهجتها، وكذا وكذا، وأعوذ بك مـن النَّـار وسلاسـلها وأغلالهـا وكذا وكذا، فقال: يا بنيَّ! إنِّي سـمعت رسول الله ﷺ يقول: «**سَيَكُونُ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِي الدُّعَاءِ**» فإيَّـاك أن تكـون منهـم، إن أُعطيت الجنَّة أُعطيتها وما فيها من الخير، وإن أُعذت من النَّار أُعذت منها وما فيها من الشَّرِّ».

وقد علَّل بعضهم نهي سعد رضي الله عنه لابنه عن ذاك التَّفصـيل لكونه من تكثير الكلام بدون فائدة.

ومـن أمثلة مـا يقع فيه بعض الدَّاعين اليوم من زيـادة ألفاظ لا حاجة إليها كقول الدَّاعـي: «اللَّهـمَّ انصـر المجاهديـن في سـبيلك» فيزيد: «في كلِّ مـكان»، أو يزيد: «فوق كلِّ أرض وتحت كلِّ سماء».

وكقول الدَّاعي أيضًـا: «اللَّهـمَّ ارحمنا فـوق الأرض، وارحمنـا تحـت الأرض، وارحمنا يوم العرض»؛ فهذا إضافة إلى أنَّه دعاء مخترع تُكُلِّف فيه السَّجع، ففيه ألفاظ زائـدة لا حاجـة إليهـا، ويكفـي أن يقـول: «اللَّهمَّ ارحمنـا في الدُّنيا والآخرة»، وهدي النَّبـيِّ ﷺ كمـا قالت عائشـة: «**كان النَّبيُّ ﷺ يستحب الجوامع من الدُّعاء ويدع ما سوى ذلك**»[18].

- تقصُّد السَّجع في الدُّعاء وتكلُّفه:

والسَّـجع موالاة الكلام على رويٍّ واحد، فتكلُّفه مانع من الخشـوع ومُناف للضَّراعة والابتهـال، وقد قال تعـالى: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝٥٥﴾.

(17) «سنن أبي داود» (1482)، وهو في «صحيح الجامع» للألباني (3565).

(18) «تصحيح الدعاء» (ص69).

قال بعض المفسِّـرين: معنـاه التَّكلُّف في الأسجاع، وهذا التَّفسير ببعض المعنى.

وقال القرطبي في «تفسيره» (7/226): «ومنها أن يدعو بما ليس في الكتاب والسُّنَّة، فيتخيَّر ألفاظًا مقفرة وكلمات مسـجعة قد وجدهـا في كراريس لا أصـل لهـا ولا معول عليهـا، فيجعلها شـعاره ويترك مـا دعا به رسـوله عليه السلام، وكلُّ هذا يمنع من استجابة الدُّعاء».

وقـال البخـاري في «صـحيحه» (6337): (بـاب ما يكره من السَّـجع في الدُّعاء)، وسـاق تحته أثـرًا عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما، وفيه: «فانظر السَّـجع مـن الدُّعاء فاجتنبـه، فإنِّي عهدت رسـول الله ﷺ وأصحابه لا يفعلون إلاَّ ذلك» يعني لا يفعلون إلا ذلك الاجتناب.

ومن السَّجع المتكلَّف ما يُشعر السَّامعَ أنَّ الدَّاعي يلقي موعظـة أو يقرأ خطبة، كقول بعضهم: «اللَّهمَّ ارحمنا إذا ثقل منَّا اللِّسان، وارتخت منَّا اليدان، وبـردت منَّا القدمان، ودنا منَّـا الأهـل والخلاَّن، وشخصـت منَّا العينـان،...»، وقـول الآخـر وهـو يدعو على الكفـرة: «اللَّهـمَّ لا تـدَع لهـم طائـرة إلاَّ أسـقطتها، ولا سفينة إلاَّ أغرقتها، ولا دبَّابة إلاَّ نسـفتها، ولا مدرَّعـة إلاَّ دمَّرتهـا، ولا.. الـخ»، وكأنَّه يملي علـى العزيز المقتدر كيف يصـنع بأعدائه وينزل عليهم عقابه، وقول الدَّاعـي: «يا من لا تـراه العيون ولا تخالطه الظُّنون ولا يصـفه الواصـفون»، قال الشَّيخ ابن عثيمـين في «الفتـاوى» (14/143) عن هـذا الدُّعاء: «هذه أسـجاع غير واردة عن النَّبـيِّ ﷺ، وفيما ورد عنه من الأدعية ما هو خير منها من غير تكلُّف».

- دعـاء الله بذكـر أسـماء وأوصـاف وثنـاءات لم يُثْنِ بهـا الله علـى نفسـه ولا رسوله ﷺ ولم يأذن فيها:

وهذا النَّـوع من الأدعيـة موجود بكثرة عند مـن حُرم علوم التَّوحيد، ومِن أشـرفه توحيد الأسماء والصِّـفات، وطاش قلبه في مهاوي التَّحريف والتَّعطيل.

قـال الخطَّابـي في «شـأن الدُّعـاء» (ص16): «وقـد أولـع كثـير مـن العامَّة بأدعية منكرة اخترعوها، وأسـماء سمَّوها مـا أنـزل الله بها من سـلطان، وقـد يوجد في أيديهـم دسـتور مـن الأسـماء والأدعية يسـمُّونه «الألف اسـم» صـنعها لهم بعض المتكلِّفين من أهـل الجهل والجرأة على الله عز وجـل أكثرها زور وافـتراء على الله عز وجـل، فليتجنبها الدَّاعي إلاَّ مـا وافق منها الصَّواب».

ثـمَّ ذكر أمثلـة لذلك «ممَّا يسـمع على ألسـنة العامَّة وكثير من القصاص، قولهم: «يـا سـبحان، يـا برهـان، يـا غفـران، يا سلطان» وما أشبه ذلك، وهذه الكلمات وإن كان يتوجَّه بعضـها في العربية على إضـمار النِّـسبة بـ«ذي»، فإنَّـه مسـتهجَن مهجور؛ لأنَّه لا قدوة فيـه، ويغلط كثير منهم في مثل قولهـم: «يا رب طـه ويس، ويـا رب القرآن العظيم»».

وممَّـا يكـثر في الدُّعـاء عند بعضـهم: الدُّعاء بـ: «يا فرد، يا ساتر، يا ذا المنّ»، وهي أسماء لا تثبت في حقِّ الله تعالى[19].

وقـول البعض الآخـر في ذكر صـفاته: «يـا من لا تراه العيون، ولا تخالطه الظُّنون، ولا يصـفه الواصـفون»، فالدُّعـاء بمثـل هـذا لا يجوز؛ لأنَّه سـبحانه يـراه المؤمنون يـوم القيامة في الموقـف وفي الجنَّـة، وإنَّما يحجـب عنه الكافـرون[20]، كمـا أنَّ عبارة «لا يصـفه الواصفون» فيها نظر ظاهر؛ لأنَّ

(19) انظر: «المنتقى» للفوزان (1/27)، و«السنن والمبتدعات» للشقيري (ص133).

(20) انظر: فتوى للشيخ ابن باز «جريدة الرياض» ب: (1418/09/11).

الله سبحانه يوصف بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ.

قال الشَّيخ صالح الفوزان في «المنتقى» (49/1): «وربَّما يكون هذا اللَّفظ منقولاً عن نفاة الصِّفات».

ومن ذلك قول بعضهم: «يا مَن أمره بين الكاف والنُّون». وهذا كما قال الشَّيخ ابن عثيمين رحمه الله: «غلط عظيم، والصَّواب: «يا مَن أمره بعد الكاف والنُّون»؛ لأنَّ ما بين الكاف والنون ليس أمرًا، فالأمر لا يتمُّ إلاَّ إذا جاءت الكاف والنُّون؛ لأنَّ الكاف المضمومة ليست أمرًا، والنُّون كذلك، لكن باجتماعهما تكون أمرًا»[21].

ومن ذلك قولهم في دعاء الثَّناء: «في السَّماء مُلكك، وفي الأرض سلطانُك، وفي البحر عظمتُك..». وهذه العبارة ـ كما جاء في فتوى (اللَّجنة الدَّائمة) ـ: «تركُها أولى، لأنَّ فيها إيهامًا فقد يظنُّ منها البعض تخصيص الملك بالسَّماء فقط، أو السُّلطان بالأرض فقط، وهكذا، وعظمة الله وملكه وسلطانه وقهره عامٌّ في جميع خلقه»[22].

هذا؛ وهناك أنواع أخرى تدخل في الاعتداء، وقد تكون من فروع ما ذُكر، كالتَّغنِّي والتَّلحين في الدُّعاء، وتقصُّد التَّشهُّق والبكاء، وتعليق الدُّعاء على المشيئة، والدُّعاء بأمر قد فُرغ منه، وغير ذلك ممَّا يصعب الإحاطة به على وجه التَّفصيل.

أمور ليست من الاعتداء

1/ الإكثار من الدُّعاء:

قال الخطَّابي في «شأن الدُّعاء» (ص14): «وليس معنى الاعتداء الإكثار منه»، وقال ﷺ: «**إِذَا سَأَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيُكْثِرْ، فَإِنَّهُ يَسْأَلُ اللهَ**»[23].

(21) «شرح الأربعين النووية» (ص 76).
(22) «فتاوى اللجنة» (370/26).
(23) ابن حبان في «صحيحه» (889)، وهو في «صحيح الجامع» (591).

2/ السَّجع إذا لم يكن متكلَّفًا ولا مقصودًا:

قال السَّفاريني في «غذاء الألباب» (49/1): «ولا يتكلَّف السَّجع في الدُّعاء، فإنَّه يشغل القلب ويُذهب الخشوع، وإن دعا بدعوات محفوظة معه له أو لغيره من غير تكلُّف سجع فليس بممنوع».

وقال ابن حجر في معرض ذمِّه لمن تكلَّف السَّجع في الدُّعاء ـ كما في «الفتح» (129/11) ـ: «ولا يرد على ذلك ما وقع في الأحاديث الصَّحيحة؛ لأنَّ ذلك كان يصدر من غير قصد إليه، ولأجل هذا يجيء في غاية الانسجام، كقوله ﷺ في الجهاد: «**اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الكِتَابِ، سَرِيعَ الحِسَابِ، هَازِمَ الأَحْزَابِ**»، وكقوله ﷺ: «**صَدَقَ وَعْدَهُ وَأَعَزَّ جُنْدَهُ**» الحديث، وكقوله: «**أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَيْنٍ لاَ تَدْمَعُ، وَنَفْسٍ لاَ تَشْبَعُ، وَقَلْبٍ لاَ يَخْشَعُ**»».

3/ اللَّحن في الدُّعاء إذا صدر من غير عارف بالنَّحو وقواعده:

سئل شيخ الإسلام عن رجلٍ دعا دعاءً ملحونًا، فقال له رجل: ما يقبل الله دعاءً ملحونًا، فأجاب رحمه الله بما نصُّه: «من قال هذا القول فهو آثم مخالف للكتاب والسُّنَّة ولما كان عليه السَّلف، وأمَّا من دعا الله مخلصًا له الدِّين بدعاء جائز سمعه الله وأجاب دعاءه، سواء كان مُعربًا أو ملحونا، والكلام المذكور لا أصل له، بل ينبغي للدَّاعي إذا لم يكن عادته الإعراب أن لا يتكلَّف الإعراب، قال بعض السَّلف: إذا جاء الإعراب ذهب الخشوع..»[24].

4/ الدعاء بجميع أدعية القرآن الخاصة بالمؤمنين من الأنبياء وغيرهم:

ويستثنى من ذلك ما علم أنه خاص

(24) «مجموع الفتاوى» (488/22).

بنبي كدعاء نوح مثلاً على أهل الأرض بالهلاك: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾ [نوح] فإن هذا الدعاء كان بعد أن أعلمه الله أنه لا يؤمن من قومه إلا من قد آمن[25].

ومن أمثلة دعاء المؤمنين دعاء خاتمة البقرة: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾؛ فهذا الدعاء عده بعض أهل العلم من الاعتداء في الدعاء بسبب أن الله أجرى هذا حكما في أنه لا يؤاخذ من نسي أو أخطأ ولا يكتب عليه وزرا، فمن دعا به ـ وهو عالم بأن الله قد أعطاه إياه ـ فكأنه شك في تكفل الله به.

والصحيح أن هذا ليس من الاعتداء في الدعاء؛ لأن عدم المؤاخذة على النسيان والخطأ خاصٌّ بالمؤمن الموحد، فكان الداعي بهذا يسأل ربه أن يكون من زمرة المؤمنين الموحدين الذين أكرمهم الله بهذا الفضل والإحسان، فهو شبيه بمن قال: «اللهم ثبتني على الإيمان، اللهم لا تزغ قلبي حتى لا أؤاخذ بنسياني أو خطئي[26].

■ ■ ■

هذا ما تيسر جمعه والوقوف عليه مع الإقرار بأن الموضوع متسع الشعب والأطراف، كثير الفروع والأمثلة يحتاج إلى مزيد جمع وضبط وترتيب، وفق الله كل راغب في نفع المسلمين ونصحهم.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

(25) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (336/8).
(26) أفاده الشيخ صالح آل الشيخ ضمن أجوبته في «شرح الطحاوية» (488/22) بتصرف.



واحة الإصلاح

إعداد: أسرة التحرير

من نور كتاب الله..

﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ [سورة الأعراف]

قال جعفر الصادق رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«أمر الله نبيه بمكارم الأخلاق في هذه الآية، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية».

[«الجامع لأحكام القرآن» (7/543)]

●●●

﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾ [سورة آل عمران]

قال محمد الخضر حسين رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وليعتبر في هذه الآية من يتولى أمرًا يستدعي أن يكون بجانبه أصحاب يظاهرونه عليه، حتى يعلم يقينًا أنَّ قوَّة الذَّكاء، وغزارة العلم، وسعة الحياة، وعظم الثَّروة؛ لا تكسبه أنصارًا مخلصين، ولا تجمع عليه من فضلاء النَّاس من يثق بصحبتهم إلَّا أن يكون صاحب خلق كريم من اللِّين والصَّفح والاحتمال...» اهـ.

[«أسرار التَّنزيل» (ص330)]

نفائس الحكم

ثمان كلمات خير من الدنيا وما فيها، وهي هذه:

- أحسن تغنم.
- واصمت تسلم.
- ولا تعمل تندم.
- ولا تكسل تعدم.
- ولا تضمن تغرم.
- ولا تصاحب صاحب سوء فتتهم.
- ولا تكلم بما لا تعلم.
- ولا تقل على الله غير الحق فتأثم».

[«الغرر على الطرر» (ص192)]



عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن رجلا كان يبيع الخمر في سفينة، وكان يشوب الخمر بالماء ومعه قرد، فأخذ الكيس فصعد الدقل (خشبة يُمد عليها شراع السفينة) فجعل يلقي دينارا في البحر، ودينارا في السفينة، حتى جعله نصفين».

[«السلسلة الصحيحة للألباني» (2844)]

قال ابن القيم رحمه الله: «كأنه يقول له بلسان الحال: ثمن الماء صار إلى الماء ولم يظلمك».

[«مفتاح دار السعادة» (1/352)]

رأت فأرة جملا فأعجبها، فجرت خطامه فتبعها، فلما وصلت إلى باب بيتها وقف فنادى بلسان الحال: إما أن تتخذي دارا تليق بمحبوبك أو محبوبا يليق بدارك.

قال ابن القيم رحمه الله معلقا: «وهكذا أنت إما أن تصلي صلاة تليق بمعبودك، وإما أن تتخذ معبودا يليق بصلاتك».

[«الفوائد» (ص883)]

ساق ابن الجوزي هذا المثل قائلا:

«إن الكلب قال للأسد:

يا سيد السباع! غير اسمي؛ فإنه قبيح.

فقال له: أنت خائن لا يصلح لك غير هذا الاسم.

قال: فجربني؛ فأعطاه شقة لحم، وقال:

احفظ لي هذه إلى غد، وأنا أغير اسمك.

فجاع وجعل ينظر إلى اللحم، ويصبر، فلما غلبته نفسه قال:

وأي شيء باسمي؟ وما كلب إلا اسم حسن، فأكل».

■ ■ ■

قال ابن الجوزي معلقا:

«وهكذا خسيس الهمة، القنوع بأقل المنازل، المختار عاجل الهوى على آجل الفضائل».

[«صيد الخاطر» (ص832-932)]



ردود قصيرة:

- إبراهيم بونجار - وفقه الله - يشكر كثيرا على كلماته الرَّقيقة ومشاعره الفيَّاضة المؤثِّرة، ونسأل الله الكريم أن يجعلنا خيرا ممَّا يُظنُّ بنا، ويغفر ذنوبنا ويستر عيوبنا.

- وأما الأخ أبو إسلام - حفظه الله - نقول له نحن في انتظار مشاركاتك التي وعدت بها، والله الموفق.

- وأما ما تمنَّاه الأخ يوسف بلقاضي - سدده الله - نرجو أن يتحقَّق، وليس ذلك على الله بعزيز.

- ونشكر كثيرا الأخ المكرم نبيل بن إيدير من مدينة البليدة على كلمته الجميلة، التي جعل عنوانها «كلمة شكر»، ونسأل الله أن يبارك فيه، وأن يوفقنا الله جميعا للعلم النَّافع والعمل الصَّالح.

- كما أنَّ الشُّكر موصول إلى كلِّ الإخوة الأماثل - حفظهم الله - الَّذين تواصلوا معنا، وعلى كلماتهم التي تشحذ الهمم وسعادتهم التي تزيدنا إصرارا على المواصلة من أمثال: الأخ خالد الأثري، والأخ بلال عمارني، والأخ عبد القادر مبارك، والأخ غربي.

- وأما الأخ النَّبيل أحمد محمَّد الغامدي - حفظه الله - من المملكة العربية السُّعودية، فنشكره على سعادته باطلاعه على مجلتنا وفرحه بها وحرصه على اقتناء أعدادها السابقة، وإننا سنحاول بدورنا تلبية رغبته بموافاته ولو ببعض الأعداد؛ والله من وراء القصد.

كما أسعدتنا كثيرا رسالة أخ مكرم بعنوان: تعبير عن ود؛ وهذا نصُّها:

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على نبي الله وبعد.

إخواني في مجلَّة الإصلاح .. مشايخنا الكرام .. هذه تعابير قصيرة الألفاظ عظيمة المعنى؛ ومدلولها عند صاحبها جليل، فرغم أنَّ الكلمات لا تملك إحاطة ما لكم علينا من فضل، إلَّا أنَّني آثرتُ أن أقدِّم ولو القليل من عبارات الشُّكر والتَّقدير ..

فليعلم إخواننا في الإصلاح تحريرا، وتنسيقا، وإخراجا أنَّنا معهم؛ وكيف لا! وفيها مشايخ الجزائر الَّذين نفخر بهم في كلِّ ناد، وذكرهم عَمَر النِّجاد والوهاد - على حدِّ تعبير العقبي رحمه الله -؛ فلكم منِّي - وأجزم أنَّ هذا الإحساس يشاطرني فيه جميع من ذاق حلاوة السَّلفية في الجزائر - جزيلَ الشُّكر والعرفان لما تقدِّموه وقدَّمتوه، فجزاكم الباري خيرا وبارك في جهدكم ووقتكم وعلمكم وعملكم، فأتموا ما بدأتموه، ونحن معكم سائرون من الصَّفحة الأولى للعدد الأول .. والله يوفقكم ويرعاكم.

المتابع الشغوف وابنكم البار:

أبو الحارث وليد بركات - سيدي خالد - بسكرة

وقد وردت علينا رسالة عن طريق موقع راية الإصلاح من أحد الأفاضل - رفع الله قدره - ومن جملة ما قاله: «وقد حمَّلت المجلَّة الرَّائعة بموضوعاتها، وأقترح من باب التَّجديد أن يستكتب في المجلَّة من أقطار العلام الإسلامي ممَّن يوثَق في علمه ونهجه، هذه وجهة نظري سدَّد الله على الخير خطاكم، ولكم وللإخوة سلامي وتقديري».

أخوكم المحبُّ: أبو أكثم سعد بن عبدالله السعدان